ذاكرة العراق

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2229) السنة التاسعة
الإثنين (22) اب 2011

5 طريقة التلاوة البغدادية في ذاكرة احد اعلامها

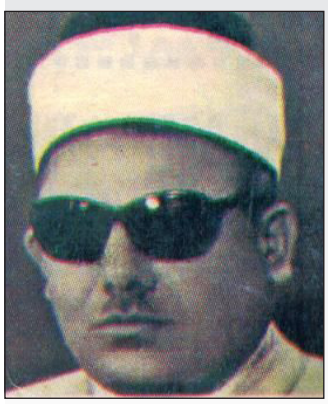

كيف ساهم الاطباء العراقيون في مكافحة (الكوليرا) في مصر؟

صورة اعضاء الهيئة التأسيسية للهلال الاحمر العراقي
من اليمين السيد رؤوف الجيبه جي، السيد طاهر جلبي محمد سليم، السيد يعقوب سركيس، الدكتور سامي سليمان، السيد عارف حكمة، السيد سليمان فتاح، السيد ارشد العمري، الدكتور صائب شوكت، السيد فخري جميل، الدكتور ابراهيم كاف الالوسي، محمد جعفر الشبيبي، الدكتور جلال العزاوي، السيد ابراهيم محمود الشابندر، السيد بهاء الدين النقشبندي، عزرا مناحيم

كيف تأسست جمعية الهلال الأحمر العراقية؟

واحد من الناس، سويسري الجنسية، هو السيد هنري دونان، كان رجل اعمال، وفي يوم من ايام ربيع شمال ايطاليا وبالتحديد يوم ٢٤ حزيران في عام ١٨٥٩، توجه رجل الاعمال هذا الى (سولفرينو) المدينة الجميلة الواقعةشمال ايطاليا، ولم يكن يدون في خلده سوى ما ستدر عليه هذه الرحلة من ارباح تجارية طالما تمناها، لكن القدر كان يخبيء له ما هو اثمن من المال واسمى من الملك الذي لا يبلى، كان يخبيء له مجدا تاريخيا وخلودا ابديا لذكراه.

فما ان وصل هنري دونان الى سولفرينو حتى انقلبت الدنيا رأسا على عقب على حين غرة واختلط الحابل بالنابل، وتعالت اصوات الانفجارات وتناثرت اشلاء القتلى، وعلا صراخ الجرحى وانين المحتضرين، وبدأ سكان المناطق هذه بالفرار الى كل اتجاه حاملين اطفالهم المذعورين، وهم يجروّن المنهارين من المسنين لايلوون على شيء حتى على ما تبقى في بيوتهم من خبز، فنجاة يصحبها جوع خير من شبع يصحبه موت.

وراح هنري دونان وهو متلبس بالفزع والخوف والهلع يركض يسرة ويمنة ويتعلق متوسلا باذيال من يتدافع معه من الهاربين من الجحيم الذي وقع على الارض فجأة لكي يعرف ماذا جرى، وما لبث بعد فترة عصيبة ان استوعب الذي يجري، فاذا هي الحرب.

شن الفرنسيون والايطاليون على حين غرة معركة عسكرية ضد النمساويين الذين كانوا قد احتلوا هذه المناطق وحاول هنري دونان ان يشد من رباطة جأشه. وان يوطن نفسه الهلعة للتعايش مع الحدث الذي ساقته اليه الاقدار. وخلال بضع ساعات رأى بعينيه ما لم يبصره احد، وسمع باذنيه ما لم تسمعه اذان. حين سقط اربعون الف مقاتل من الجانبين بين قتيل وجريح، وانقلبت هذه المروج الجميلة الغناء الى حفر واوحال وخراب تلفها ظلمات الدخان، وتعصف بها روائح البارود المرعبة وتنتن اهواءها الدماء المسفوحة على اعشاب المروج وضخورها. لم يكن للانسان عند اي واحد من الطرفين المتقاتلين اي قيمة قدسية كالتي وصفها الانجيل، ولم تكن الخدمات الصحية التابعة لأي من الجيشين المتحاربين قادرة على تلبية ابسط متطلبات الجرحى والمحتضرين. كان انعدام الامكانيات الطبية والانسانية متردية الى حد دفعت عنده المسعفين الى التخلي عن الجريح ليلعب مع خطه في وسط الكارثة لعبة القرعة على حياة او موت.

وحين امسك هنري دونان باعصابه، واصبح قلبه فارغا من الفزع والهلع، انتصب ضميره الانساني شامخا، وراح ينادي نداءات الاغاثة مستعينا بسكان القرى المجاورة من الفلاحين الذين حافظت املاح تربتهم الخام على نقاوة ضمائرهم، ان هلموا لاغاثة الجرحى من كلا الطرفين دون تمييز فالجريح والمحتضر والقتيل هو انسان خليفة الله على الارض سواء اكان ايطاليا او فرنسيا او نمساويا، فيا عباد الله انقذوا عباد الله. وهب اهل القرى حين استطاع هنري دونان ان يفك القيود عن ضمائرهم بصرخات الاغاثة التي اطلقها، وراح كأي انسان من اهل القرى يسابق غيره في اسعاف اخيه الانسان من الضحايا.

في هذه اللحظات الحاسمة اكتشف هنري ان ضمائر الناس هي مستنبات خصبة لبذور الخير والمروءة، ثمارها مثل انسانية لا تستقيم الحياة بدونها.

وعاد هنري دونان الى سويسرا يرافقه ذلك المشهد الرهيب، رهبة الموت وكوارث الحروب، بل وجلالة مستنبتات الخير في ضمائر الناس. وراح يفكر ايام ثم ايام.

ترى كيف يثير خصوبة هذه المستنبتات وكيف ينمي نوازع الخير الانسانية لتثمر ثمارها لخدمة الانسان. افي الوعظ والارشاد، وماذا جنى الوعاظ والمرشدون والرهبان وهذه الحروب الفتاكة الشرسة لا تزال تقتل الالاف وتخرب البلدان تماما كما كانت منذ الاف السنين.

وراح يسطر ذكرياته وبدون مذكراته عن ما شاهده وعايشه في (سولفرينو) وراحت الافكار والمقترحات تزدحم في عقله، حتى صار ما سطره كتابا سرعان ما انتشر وذاع اسمه بين لناس في عام ١٨٦٣ (تذكار سولفرينو) نشر هذا الكتاب من ماله الخاص وبعث به الى العائلات الحاكمة في اوروبا والى رجالات السياسة والى تجار الحروب العسكريين كما بعث به الى البررة واصدقاء ورعاة الاخلاق والخير. وما لبث هذا الكتاب ان قوبل بفوز ونجاح لم يتوقعهما. وتأثرت الهيئات الانسانية في اوروبا بهذا الكتاب الى اقصى حدود العواطف الانسانية. وصادف في تلك الفترة قيام جمعية خيرية انسانية في جنيفير اسسها محام يدعى (غوستاف موانييه)، فلما قرأ كتاب دونان تأثر كثيرا وسارع الى تجنيد جمعيته لتكون نواة لعمل خير عام للانسانية جمعاء فكون لجنة من سبعة اعضاء، خمسة منهم من افراد جمعيته، وانضم اليهم دونان والمحامي غوستاف، ثم انضم اليهم الجنرال (غيوم هنري دوفور) والدكتور (لويس ابيا) و(تيودور فونوار) وكلهم سويسريون.

وعقدت هذه اللجنة اولى اجتماعاتها في ١٧ شباط من عام ١٨٦٣ واطلقت على نفسها اسم (اللجنة الدولية لاغاثة الجرحى). وكانت هذه اللجنة هي بذرة الخير التي غرست في مستنبت الضمير الانساني

ارشد العمري
رئيس هيئة الادارة

جعفر الشبيبي
نائب الرئيس

ابراهيم محمود الشابندر
السكرتير العام

سليمان فتاح
المفتش العام

عبد الله لطفي

يعقوب سركيس

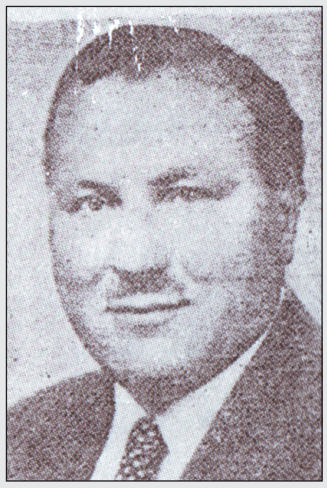
عبد المجيد محمود

الدكتور صبيح الوهبي

لتعيش وتترعرع وتعطي ثمراتها التي سميت (جمعيات الصليب الاحمر الوطنية) واتخذوا من العلم السويسري شعارا لها مع تغيير لون الصليب الى اللون الاحمر.
كان مبدأ هذه الجمعيات (دولي تعاقدي، يحترم ويصلح كأساس تقوم عليه جمعيات الاغاثة في مختلف البلدان). وهكذا نشأ القانون الدولي الانساني المعاصر الذي كانت اتفاقية جنيف الاولى هي صيغته الاولى. ثم انبثقت عن هذه اللجنة جمعيات الصليب الاحمر، ومن ثم الهلال وهكذا وفي عام ١٩١٩ شهد العالم ظهور اتحاد جديد يضم الاهلة والصلبان واصبح هذا الاتحاد يضم اليوم اكثر من مئتي مليون عضو، وبلغ عدد فروع الاتحاد في العالم حتى عام ١٩٩٠، مائة وتسع واربعون جمعية وهو اليوم (عام ١٩٩٩) يضم مائة واحدى وسبعين جمعية.
ولغرض الاتفاق على الخطوط العريضة للعمل اجتمع ممثلو عشر حكومات في جنيف عام ١٨٦٤ وخرجوا بنص قانون سمي فيما بعد بنص (اتفاقية جنيف الاولى) وعلى اساسها ازداد عدد الحكومات المتعاونة بموجب هذه الاتفاقية، ثم توالت الاتفاقيات ووقعت عام ١٩٤٩ اربع اتفاقيات جديدة. وتكرس هذه الاتفاقيات احترام الشخص الانساني في وقت النزاع المسلح، وتوصي بحماية الاشخاص الذين لا يشاركون مباشرة في المعارك اما لانهم مرضى او جرحى او اسرى. كما توصي بتقديم الاغاثة والعلاج دون تمييز الى الذين يتألمون. كما تنص الاتفاقية الرابعة التي وقعت عام ١٩٤٩ على حماية الاشخاص المدنيين في اراضي العدو والاراضي المحتلة.
وبموجب هذه الاتفاقيات التي وقعت عام ١٩٤٩ التزمت الدول بالخطوط الرئيسية التالية:
١. تقديم العلاج للاصدقاء والاعداء بصورة متكافئة.
٢. احترام الانسان وشرفه واحترام حقوق الاسرة والمعتقدات الدينية وحماية الطفل حماية خاصة.
٣. حظر المعاملات اللاانسانية واخذ الرهائن واعمال الابادة والتعذيب والاعدام بلا محاكمة والطرد والنهب وتدمير الممتلكات الخاصة بلا مبرر.
٤. السماح لمندوبي اللجنة الدولية للصليب الاحمر بزيارة اسرى الحرب والمحتجزين المدنيين ومقابلة المعتقلين دون وجود رقيب..
وبتطور ادمية البشر مع مرور السنين وابتعادهم نسبيا عن الوحشية الحيوانية، وجدوا ان هذه الاتفاقيات التي عقدت عام ١٩٤٩ لم تكن كافية لتطوير النزوع الانساني لدى البشر. فسعت الاطراف المشاركة الرئيسية الى ان تضع ميثاقا للجنة الدولية، فاجتمعوا عام ١٩٦٥ اثناء المؤتمر العشرين الذي عقد في (فينا) واعلنت سبعة مباديء اساسية اعتبرت الاسس التي تنهض عليها كل فعاليات اللجنة وهي:
١- الانسانية.
٢- عدم التحيز.
٣- الحياد.
٤- الاستقلال.
٥- التطوعية.
٦- الوحدة.
٧- العالمية.
وبعد سنين عديدة، اقترح اهل الخير منهم ان تضاف نصوص جديدة وهكذا في ٨ حزيران عام ١٩٧٧ تبنى مؤتمر دبلوماسي عقد في جنيف بروتوكولين لاحقين باتفاقيات جنيف الاربع السابقة، هذان البروتوكولان يصلحان للعمل في حالتي النزاع المسلح الدولي والنزاعات المسلحة غير الدولية. ويعترفان بحق الاتحاد بالتصرف اثناء نشوب الحروب وعرض خدماتهم على المتقاتلين وبحقها في اتخاذ المبادرات الانسانية في الحالات التي لا تشملها الاتفاقيات او لا يشملها البروتوكولات ففي وقت الحرب والحروب الاهلية والاضطرابات او التوترات الداخلية تتدخل اللجنة الدولية لدى المتحاربين او الخصوم كوسيط محايد بشكل خاص وتسعى من اجل تقديم الحماية والمساعدة الى المدنيين والعسكريين المتضررين بسبب هذه الاوضاع.
وهكذا تبلور النظام الاساس للجنة الدولية للصليب والهلال الاحمر. ونص النظام على ان هذه اللجنة الدولية هي جمعية خاصة مستقلة وسويسرية يوجد مقرها الرئيسي في جنيف. وهي محايدة على المستويات السياسية والدينية والايديولوجية، وتكتسب طابعا دوليا بحكم مهمتها الراسخة في اتفاقيات جنيف على وجه التحديد. والجهاز الاعلى للجنة الدولية مكون من خمسة وعشرين عضوا كحد اقصى، ينتمون الى الجنسية السويسرية ويتم انتقاؤهم بالافضلية. ويتم تسيير شؤون العمليات والاعمال الادارية للمؤسسة بواسطة مقرها الرئيس في جنيف وبعثاتها الموزعة في مناطق النزاع.
تمول اللجنة الدولية من مساهمات طوعية متنوعة، منها مساهمات الدول الاطراف في اتفاقيات جنيف ومساهمات الجمعيات الوطنية والمساهمات الخاصة وتبرعات ووصايا متنوعة.
وبعد هذه المسيرة التاريخية الحافلة بالخدمات الانسانية، لا تزال هذه المنظمة تمارس اعمالها في جميع بقاع العالم. غير ان نشاطها يتراوح بين الكمال وبين التعثر تبعا للظروف السياسية وانظمة الحكم السائدة في كل قطر، فكثيرا ما تعرض العاملون فيها الى الاختطاف والى القتال وابسط من ذلك الى الاهانة والاعتقال ومنعهم من اداء واجباتهم. ومع ذلك فقد اعلنت المنظمة انها استطاعت ان تزور ما يزيد على نصف مليون سياسي في خمسة وتسعين بلدا وفي حملة اخرى بين عامي ١٩٨٠ – ١٩٨٥ قام مندوبوا اللجنة ب ١٢٢٥٠ زيارة الى مراكز اعتقال متنوعة. وبلغ عدد المعتقلين السياسيين الذين سجلهم المندوبون او تقابلوا معهم دون وجود رقيب بحوالي ١٥١٠٠٠٠ معتقلا. واستطاعت المنظمة جمع شمل مئات الالاف من العائلات التي تشردت وانفصلت عن بعضها بسبب الحروب، واغاثة الاف المقعدين في مختلف مناطق العالم، ووزعت اعانات على ضحايا النزاعات المسلحة تقدر بحوالي مليارين من الفرنكات السويسرية.
يقول خبراء الاتحاد ، ان الكوارث الطبيعية تقتل كل عام اكثر من ١٥٠٠٠٠ شخص وتعطل حياة اكثر من ١٢٩ مليون شخص وبعد عقد زمني من الان (عام ٢٠٠٠) يمكن ان يتضرر حوالي ٢٢٠ مليون شخص من الكوارث الطبيعية كل عام. ويجمع الاتحاد الدولي حوالي ٢٥٠ مليون فرنك سويسري كل عام لدعم ضحايا الكوارث ويحتاج الى اكثر من سبعين في المئة من جمعيات الصليب الاحمر والهلال الاحمر على دعم من برامج الاتحاد الدولي لتنمية قدراتها على مساعدة الضعفاء.
وفي المجال الصحي، يسعى الصليب والهلال الاحمر الدولي الى الوقاية من الامراض المعدية ومكافحتها بين المتضررين من الكوارث وبين اللاجئين والمشردين والاسرى والمعتقلين والقيام بالتوعية الصحية والاسعافات الاولية الصحية الاساسية والعيادات ومستشفيات الاحالة والدعم النفسي والتحكم في التوتر وتوزيع الاغذية والملابس وتوفير المأوى وادارة مخيمات اللاجئين وتوفير المياه الصالحة للشرب وصحة البيئة وترويج القانون الدولي الانساني والمعايير الانسانية للمساندة الانسانية والبحث عن المفقودين وجمع شمل العوائل.
ويتعاون الاتحاد الدولي مع منظمات عالمية عديدة مثل منظمة (اوكسفام) وصندوق انقاذ الطفولة واطباء بلا حدود ومجموعات من الكنائس ومنظمة العمل الدولي لمكافحة الجوع ومنظمات حقوق الانسان ومنظمة الصحة العالمية وبرنامج الاغذية العالمي ومفوضية الامم المتحدة لشؤون اللاجئين.
وفي عام ١٩٩٤ وضع الاتحاد بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الاحمر وست منظمات غير حكومية، مدونة سلوك مهنية تشتمل على معايير اخلاقية عالمية للمساعدة الانسانية وتهدف هذه المدونة الى تشجع انسان العمل الى الحفاظ على استقلال وفعالية عمل المنظمات الانسانية وهي مدونة طوعية يعتمد تطبيقها على تصميم كل منظمة على احترام المعايير الانسانية الاساسية عند تنفيذ برامج الاغاثة. ورحبت ١٣٨ دولة خلال المؤتمر الدولي للصليب والهلال الاحمر المنعقدة عام ١٩٩٥ بهذه المدونة والتزمت بها او تعهدت بالالتزام بها.

الهلال الاحمر في العهد العثماني

تشكلت هيئة مركزية لجمعية الهلال الاحمر العثماني في بغداد خلال الحرب العالمية الاولى فجمعت التبرعات واسست مستشفى للهلال في بناية الاعدادية العسكرية يحتوي على ٣٠٠ سرير. كما اسست مستشفى في العمارة يحتوي على ٣٠٠ سرير وناقلتين نهريتين تحتوي كل منها على ٨٠ سرير، ساعدت السيدات العراقيات بجمع التبرعات وحياكة الالبسة لعوائل الجنود والضباط المحاربين.

تأسيس الهلال الاحمر العراقي

تأسست جمعية الهلال الاحمر العراقية سنة ١٩٣٢ عندما نال العراق استقلاله وقبل عضوا في عصبة الامم المتحدة وقد تم ذلك برعاية وتشجيع المغفور له الملك فيصل الاول.
في اوائل سنة ١٩٣٢ دعا امين العاصمة انذاك السيد ارشد العمري ١٥٠ شخصا من وجهاء الدولة العراقية واشرافها ومفكريها الى اجتماع في مكتبة الاوقاف العامة وعرض عليهم فكرة تشكيل جمعية للهلال الاحمر اسوة بالبلاد المتمدنة الاخرى.
وبعد المداولة والبحث تقرر انتخاب هيئة تأسيسية مكونة من ستة عشر ذاتا تودع اليها امر تدقيق انظمة الجمعيات المماثلة ووضع مسودة للنظام الاساسي ليقدم على اساسه طلب تشكيل الجمعية الى وزارة الداخلية.
اجتمعت الهيئة العامة بتاريخ ١٩٣٢/٣/١ وانتخبت من بينها هيئة ادارية مكونة من ثمانية اضخاص لادارة امور الجمعية والاضطلاع بسئولياتها وتنمية مواردها كي تقوم بواجبها على الوجه الاكمل وفق نظام الجمعية.
اهدافها:
في الحروب
– مساعدة جرحى الحرب ومنكوبيها وتخفيف الامهم بكافة الوسائل المتيسرة لديها وذلك بالتآزر مع الهيئات الصحية والعسكرية.
– تقديم المعونة الصحية الى مرضى الحرب وجرحاها دون تميز بين صديق وعدو عملا بالاتفاقيات الدولية.
في اوقات السلم:
– اسعاف المنكوبين الذين اصيبوا بنكبات فجائية شتى داخل البلاد وفي خارجها.
– فتح المستوصفات ومراكز الاسعاف الاولى للعناية بافراد الشعب من القراء.
– تدريب المتطوعين على اعمال الاسعاف والتمريض وتهيئتهم لحالات الطوارئ.
– تشترك الجمعية عند مسيس الحاجة في المساعي التي تقوم بها الجمعيات الخيرية الاخرى.
فروعها:
– للجمعية فروع في معظم المحافظات تسير على مبادئ الهلال وتنتهج نهجه وتكون مرتبكة بالمركز العام في بغداد.
– للجمعية فروع نسوية في بعض مراكز المحافظات تقوم في الاوقات الاعتيادية بشتى الخدمات الاجتماعية وتساعد في اعمال الانقاذ والاسعاف عند النكبات الطبيعية والحروب.

من كتاب (تاريخ الطب العراقي الحديث)

هنري دونان ومؤسسي اللجنة الدولية لاغاية الجرحى

كيف انتشر الفكر اليساري في وسط العراق

د. سيليفيا نيف جامعة جنيف
ترجمة: الدكتور محمود عبد الواحد

من المعروف ان اليسار العراقي، وبضمنه الشيوعيين، كان قويا لعدة عقود. ومع ذلك، فان القليل جدا من المؤرخين ربط المدينة المقدسة للشيعة الاثني عشرية مع هذه الظاهرة، فالنجف هي اول واقدم مدينة ارتبطت بالدين والفكر الشيعي في القرن التاسع عشر. لذلك، تركز البحث، في الماضي، اساسا على تأثير علماء النجف في السياسة الايرانية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعلى نحو خاص اثناء ثورة التبغ في عام ١٨٩١، والحركة الدستورية بين (١٩٠٥ – ١٩١١).

ومؤخرا جدا، نالت وظيفة النجف كمركز ديني اهتماما من قبل (ليتفاك Litvak عام ١٩٩٨). وعلى الرغم من ان الكتاب العراقيين قد تناولوا دور العلماء في سياسة بلادهم منذ مدة طويلة، فان البحث الغربي في هذا الموضوع بدأ فقط مع صدور كتاب بيير لوزار Pierre – Jean Luizard في عام ١٩٩١ (لوزار ١٩٩١).

هذه الاشارات جوانب اساسية في دور النجف في العراق والمنطقة . مع ذلك، فان دورها تعدى في ذلك الوقت الفكر الشيعي الامامي، وبجذبها للطلاب والعلماء من اصقاع متعددة، فان المدينة بمكتباتها ومتاجر الكتب، ونقاشاتها وحلقاتها الادبية، اصبحت بالنسبة للعديد من الطلاب الشباب في اوائل القرن العشرين المكان الذي اكتشفوا فيه افقا ثقافيا للنهضة العربية ومفكريها العلمانيين واليساريين وحتى الماركسيين. ففي النجف، بدأ مفكرو اليسار المشهورين، واحيانا الشيوعيين، مثل الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري (١٩٠٠ – ١٩٩٧) او الكاتب والمفكراللبناني حسين مروة (١٩١٠ – ١٩٨٧) والعديد من المفكرين الاخرين، باتباع طريق اخذهم بعيدا عن هدفهم الاساسي بان يصبحوا علماء دين مثل ابائهم واجدادهم. البحث الحالي، الذي يلخص بعض النتائج من بحث موسع سوف يحاول ان يوضع باختصار هذه النقاط.

ويستند البحث الحالي على مصادر متنوعة، اهمها السي والسير الذاتية. وباعطاء تفاصيل محدودة ربما تبدو غير مهمة في الوهلة الاولى، فان قصص الحياة، على الرغم مما تخفيه، مهمة جدا في اعادة بناء العمليات الفردية لتطور الفكري. وان ذكر القراءات والمناقشات والمساهمة في الاحداث العامة، السياسة والثقافة ومقارنة هذه العناصر في حياة المؤلفين المتعددين، وسيلة نافعة لاعادة رسم صورة الحياة الفكرية النجفية منذ تشكيل الدولة العراقية وحتى نهاية عهد الملكية. ان اعادة ترتيب هذه الروايات يسمح باعداة تركيب الغموض وربما يكون اكثر من تصريحات رسمية قامت بها هذه الشخصيات نفسها فيما يتعلق باختياراتها الايديولوجية، وهي التصريحات المنطقية على نحو مجرد.

١- النجف مركزا للحوار الفكري:

منذ نهاية القرن الثامن عشر، وكنتيجة اساسية لاستقرار العلماء الايرانيين هربا من السيطرة القاجارية المباشرة، اصبحت النجف مركزا مزدهرا للحوار الفكري الشيعي، وتكونت الاعمال الدينية من نتاجات كثيرة، الا ان الشعر والادب كان في الغالب "حصيلة" لهذه النشاطات. وقد كتب العديد من العلماء المشهورين الشعر وعندما لم يفعلوا ذلك. فان القراءات العامة ورواية الشعر كانت احدى نشاطاتهم الممتعة.

لقد ادى ادخال المطابع الى زيادة النتاج الادبي: فظهرت الدوريات والصحف واصبحت اداة رئيسة للتحول في الادب، ولكن ايضا، وعلى نحو مشابه للمناطق الاخرى في الشرق الاوسط، للفكر الحديث، وكانت الدورية الاولى التي صدرت في النجف هي (العلم) التي اسسها محمد علي هبة الدين الشهرستاني، وظهر عددها الاول في اليوم الاخير من ربيع الاول عام ١٣٢٨، الموافق للحادي عشر من نيسان ١٩١٠ (محبوبة، ١٩٨٦ : ١، ١٧٩). وكما يشير المحبوبة، "اذا كانت بغداد قد احتضنت اول صحيفة يومية في البلاد، هي الزوراء، التي تأسست خلال عهد مدحت باشا فان النجف كانت اول مدينة في بلاد ما بين النهرين صدر فيها اول دورية" (آل محبوبة).

وكانت الكتب التي تناولت عملية التحول التي مربها الشرق الاوسط انذاك قد طبعت في النجف ايضا. وكان كتاب محمد حسين نائيني (تنبيه الامة وتنزيه الملة) احد اسس الثورة الدستورية الايرانية في سنة (١٩٠٥ – ١٩٠٦) . ونوقشت بعض جوانب العلاقة بين العلم والدين في كتاب هبة الدين الشهرستاني (الحياة والاسلام) الصادر عام ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م. وكانت الدارونية، المعروفة في العالم العربي من خلال ترجمات شبلي الشميل، والمادية، قد نالت اهتمام عالم نجفي اخر، هو محمد حسين ال كاشف الغطاء. وفي كتابه المكون من جزئين، تناول المؤلف هذا الموضوع المختلف عليه على نحو واسع بين مواضيع اخرى متعلقة بالتحديات التي يواجهها العالم الاسلامي في العصور الحديثة. وعلى الرغم من كتابته من قبل شخصية نجفية، فان هذا العمل كان حصيلة لشبكة شيعية واسعة: وطبعته مطبعة العرفان التي اسسها احمد عارف الزين (١٨٨٤ – ١٩٦٠)، الذي اصدر في عام ١٩٠٩ مجلة العرفان الدورية، وهي مجلة شيعية مساوية للمقتطف.

وكانت مجلة العرفان، وعلى الرغم من عدم صدورها في النجف كانت احدى الوسائل الرئيسة للتحول نحو الافكار الجديد، وكان لها تأثير كبير على جيل الشباب الدارس هناك. وقد اسهم العديد من النجفيين في النشر فيها، من الشخصيات المعروفة والكتاب الشباب التي كانت بالنسبة لهم منبرا استطاعوا الوصول اليه للتعبير عن افكارهم. الى جانب العرفان، انتشرت مجلات المقتطف والهلال ومجلة العصور الاشتراكية – التي اصدرها اسماعيل مظهر – وتتبعها الشباب النجفي على نحو واسع. وكان للنجف صحافتها الخاصة ايضا. واكثر هذه الصحف عمرا هي جريدة الهاتف التي اصدرها جعفر الخليلي، وظهرت سنة ١٩٣٥ واستمرت حتى سنة ١٩٥٤. وعلى الرغم من اعلان محررها منذ العدد الاول انها ستكون منشورا ادبيا وليس سياسيا، لان السياسة تفسد كل شيء، اصبحت الهاتف احدى الاصوات الرئيسة في الجدال السياسي النجفي والعراقي خلال حوالي عشرين سنة من وجودها، حتى وان كانت هذه الافكارالسياسية قد عبر عنها من خلال الروايات والاشعار التي نشرت تباعا، وكانت الهاتف في المشهد النجفي صوتا نقديا يدعم القضايا القومية العربية (مثل القضية الفلسطينية) والافكار الاصلاحية في النظام التعليمي التقليدي والحياة الاجتماعية.

لم تنتشر الافكار من خلال الصحافة فقط. فكانت الكتب من جميع الاتجاهات موجودة في المدينة. وقد تحدث حسين مروة عن سنوات تلمذته: "تتبعت كل شيء انتجه الناشرون العرب المحدثون في مسالة الكتب في كل الحقول، وكان الناشرون عراقيين وسوريين ولبنانيين ومصريين. وكانت النجف انذاك سوقا لجميع المنشورات العربية". (مروة، ٣٠، ١٩٩٠) . ان مروة ، الذي يرجع في اصله الى جنوب لبنان، ارسلته عائلته الى النجف ليصبح عالما دينيا. ومهما يكن ، فان شكوكه اثناء سنواته النجفية، ابعدته عن مشروعه الاصلي، وتخلى عن لباسه الديني واتجه الى تبني موقف الجناح اليساري، وقد جرد من جنسيته العراقية ونفي من البلاد في عام ١٩٤٨ بسبب نشاطاته السياسية ، ليصبح احد الاعضاء البارزين في الحزب الشيوعي اللبناني.

الى جانب المكتبات الشخصية للعلماء، كان هناك العديد من متاجر الكتب ومعرضا اسبوعيا للكتب اقبل عليه الطلاب، وقد اشترى حسين مروة اول كتبه الشعرية هناك، الذي القه سيد ابراهيم الطباطبائي، ولم يحتو الكتاب نفسه اي شيء ثوري، الا ان الحقيقة الواضحة تؤكد ان قراءته للشعر قد عدها زملاؤه الطلبة انصرافا غير مجد عن الدين والدراسة. مع ذلك لم يتاثر مروة بوجهة النظر هذه وواصل قراءة الشعر، وفيما بعد قرأ الادب، والكتب السياسية (مروة، ١٩٩٠،٣٢).

من الاشتراكية الرومانسية الى الفكر العلماني الراديكالي:

يمكن القول عموما ان الشباب الدارسين في النجف لم يطوروا اثناء وجودهم هناك، فكرا راديكاليا بل كانوا اكثر ميلا الى نوع من الاشتراكية الراديكالية والمعادية للاستعمار.

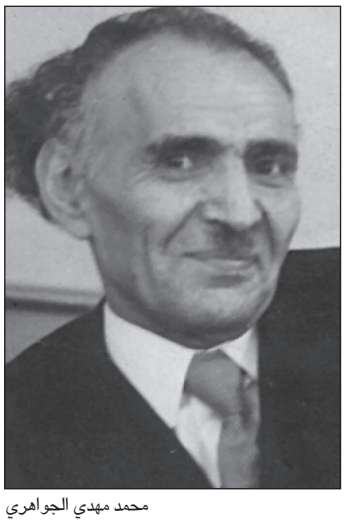
محمد مهدي الجواهري

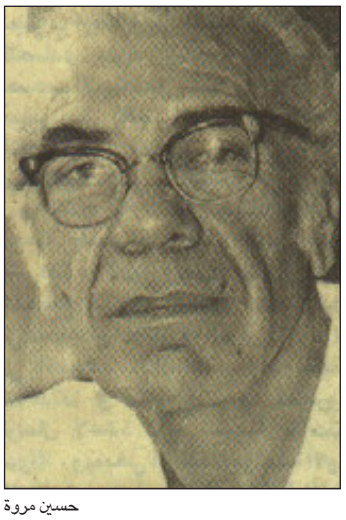
حسين مروة

محمد علي هبة الدين الشهرستاني

وقد اتسع الموقف النقدي المعادي للحكومة والبريطانيين انذاك في النجف، كما في حالة العالم المحافظ محمد حسين آل كاشف الغطاء، المعروف بموقفه المعادي للفكر العلماني. ففي عام ١٩٣١، كان احدى الشخصيات البارزة في المؤتمر الاسلامي الدولي الذي عقد في القدس وانغمس بقوة في الكفاح الوطني العراقي ضد البريطانيين (نيف ١٩٩٦، (١): ٦٢ : ٦٧) . وفي عام ١٩٣٦ نشر في الهاتف "نداء الى العالم الاسلامي" لصالح فلسطين (الهاتف (٣٥) ١٩٣٦، ٢). وبعد سنة، في تموز ١٩٣٧، كان احد المنظمين لمظاهرة كبيرة في النجف دفاعا عن عروبة فلسطين (الهاتف ، ٨٤، (١٩٣٧): ٢). وفي العقود التالية، اصبح منتقدا للسياسة البريطانية والامبريالية في الشرق الاوسط، في كتاباته المتعددة (نيف، ١٩٩٧).

ان الرؤية الرومانسية للمشكلات الاجتماعية تظهر بوضوح في مقالات حسين مروة المنشورة في الهاتف خلال ثلاثينات واربعينات القرن العشرين، اذ كان مروة احد المساهمين البارزين في الهاتف، وله عموده الاسبوعي لمدة طويلة (امالي الاسبوع). فالمقالات التي تمجد العائلة المالكة العراقية كانت الى جانب تلك المقالات المنتقدة للتعليم في النجف. وانصب اهتمامه في ذلك الوقت على اصلاح النظام التعليمي القائم والوضوح السياسي في العراق والعالم العربي.

المثال الاخر على مثل هذه الرؤية الاشتراكية الرومانسية في المرحلة الاولى من نشاطه السياسي والادبي يمكن ملاحظته في حياة محمد صالح بحر العلوم ، الذي ولد عام ١٩٠٩ او ١٩١٠، وينتسب، كما هو الحال بالنسبة الى محمد مهدي الجواهري، الى احدى العائلات النجفية المتعلمة الكبيرة، وهي عائلة بحر العلوم، وكان والده، الذي توفي عندما كان محمد صالح في عامه السابع، معروفا بكونه عالما دينيا. درس محمد صالح في النجف، وفقا للمناهج التعليمية التقليدية، وحصل على "الاجازة" من محمد حسين ال كاشف الغطاء عام ١٩٣٤. وفي عام ١٩٣٧ ، ترك النجف وعاش في بغداد، اذ عمل في معمل السكائر، بموقف يمثل انفصالا تاما عن وسطه الاصلي وسجل هناك ايضا في كلية الحقوق ، الا ان الضيق المادي ومصاعب عمله حالا دون حصوله على الشهادة. لقد ناصر محمد صالح بحر العلوم احزابا يسارية متعددة، وقضى غالبية سنوات حياته في السجن بسبب ارتباطاته السياسية. واعيد اليه اعتباره في عهد عبد الكريم قاسم. فبعد مدة قصيرة من اندلاع الثورة، وفي التاسع والعشرين من تموز عام ١٩٥٨، القى محمد صالح بحر العلوم قصيدة تمجد "شعب الرابع عشر من تموز" من اذاعة بغداد. ونشر (اقباس الثورة)، وهو مجموعة شعرية كتبت تحية لثورة ١٤ تموز، ونشرت في بغداد عام ١٩٥٩ (ايوب، ١٩٥٩، ١٢). وتعرض ثانية للاهانة بعد الانقلاب البعثي الاول في عام ١٩٦٣، ثم اتجه الى البعث احيرا.

وفي ثلاثينات القرن العشرين، عرف محمد صالح في النجف بانه "شاعر الشباب". فنشر في الهاتف وكانت له دورتيه الخاصة "المصباح" واول كتاب اصدره هو "العفة"، الذي طبع في البصرة عام ١٩٣٢، وهي قصة حب مع خلفية اجتماعية تظهر كيف ان التقاليد والفارق الاجتماعي تحبط المشاعر بين شخصين (بحر العلوم، ١٩٦٨ – ١٩٦٩ : ١، ١١).

وخلال سنوات وجوده في النجف، كان بحر العلوم نشيطا سياسيا، وقد اعتقل لساعات قليلة في عام ١٩٢٨، وليومين عام ١٩٣١، عندما طالب باستقالة حكومة نوري السعيد. وقد القى قصيدته "يا شعب سجل" على الجمهور تحت رقابة الشرطة لمدة عام. وقضى عدة اشهر ايضا في السجن بين (١٩٣٤ – ١٩٣٥). اتخذت نشاطاته السياسية ضد الحكومة شكل القاء القصائد على الجمهور بخلفية سياسية واجتماعية، كما حدث في عام ١٩٣٤، عندما حكم عليه بالسجن لمدة شهرين لالقائه قصيدة في الكوفة.

وفي عام ١٩٣٤، اصبح رئيسا لتحرير المجلة النجفية المصباح، وهي مجلة شهرية علمية وادبية وتاريخية، اسسها محمد رضا الحسيني وضم العدد الاول، الذي صدر في العاشر من تشرين الاول عام ١٩٣٤، ثمانين صفحة، وصدر من هذه المجلة ثمانية اعداد قبل اغلاقها في عام ١٣٤٤ هـ / (١٩٣٦ / ١٩٣٧م) (المصباح : ١٨١). ولم استطع الحصول على اي عدد من هذه المجلة، عدا الاشارات اليها الموجودة في دوائر المعارف الشيعية او الدوريات الاخرى مثل الهاتف، وهناك فقرة في العدد (٣٨) يشير الى ان "الهاتف تحيي اصدار العدد الثاني من الجزء الثاني من المصباح التي نشرت على الرغم من جميع المصاعب التي تغلبت عليها. وفي هذا العدد، يجد القارئ تحليلات جديرة بالاعتبار، واعمال ادبية جميلة (اثار) وجهودا حثيثة قام بها صديقنا سيد صالح". (الهاتف، ٣٨ (١٩٣٦) : ٤).

وقد صدر اول ديوان لبحر العلوم في عام ١٩٣٧، في مطبعة "الرأي لصاحبها جعفر الخليلي، ناشر مجلة الهاتف. وضم الكتاب، كما تشير (الهاتف ٨٨ (١٩٣٧): ٢)، اشعارا كتبها المؤلف في عدة مناسبات ونشرها في دوريات متعددة. واثنى كاتب التقديم للكتاب (الذي هو بالتاكيد جعفر الخليلي نفسه) على المكانة الادبية للكتاب وعبر عن رغبته بان تحذو المواهب الشابة الاخرى خطوات محمد صالح. واضاف "ان القارئ سيجد في الديوان مشاعر الشباب النجفي، وروح الوطنية وعروبته المتجذرة، الى جانب المكانة الادبية الرفيعة.

كان اهتمام محمد صالح في ذلك الوقت قد انصب على ظروف معيشة الفقراء من سكان الريف حول المدينة المقدسة. ويمثل غلاف "العواطف" زوجين من الفلاحين، كل منهما مع طفل، يرفع يده اليسرى في الهواء ويحمل في يده اليمنى ادوات العمل.

ويشير العناون "العواطف" الى رؤية عاطفية قوية للمسألة. وفي الواقع ، ان "المشاعر" التي عبرت عنها قصائد محمد صالح في ذلك الوقت مزجت بين الرومانسية والعاطفة تجاه الفقراء والمظلومين. ويمكن ملاحظة ذلك في "ديوانه" وكذلك في اشعاره التي نشرها في الهاتف.

فعلى سبيل المثال تنتهي قصيدة حب "المصباح" (البركة) بالابيات الاتية:

امضى ودع عنك اساطير التقاليد
عانق من يحبك وضمه بين جنبيك
اقرأ في قبلتي الحب الحقيقي
فحب البشر محدود، وحبي ليس له حدود

(الهاتف ٢٢٧ (١٩٤١): ٤)

وعندما يصف مشاعره اتجاه المرأة، يصر الشاعر على اهميته كسر التقاليد للانغماس في الحب الحقيقي. ان الالتزام بالمسائل الاجتماعية والسياسية ارتبط بقوة بمشاعره الحميمة: فلا يمكن التمييز بين حياته الخاصة والتزامه الجماهيري. في عام ١٩٣٧، كان محمد صالح بجانب شخصيات اخرى مثل "كاشف الغطاء" ، احد المنظمين لمظاهرة كبيرة تضامنا مع فلسطين. وقد اتهم بارسال برقية من المتظاهرين الى السفارة البريطانية والى السلطات الاخرى المعنية التي تشير الى "ان الجماهير المجتمعة في مرقد الامام علي ترفض القرار المشبوه لتقسيم فلسطين وسوف تعارض سياسة التقسيم بكل طاقتها وقوتها "(الهاتف) ٨٤، (١٩٣٧) : ٢).

وفي العدد السابق من الهاتف، اشار محمد صالح بقصيدة حملت عنوان "مشاعر الشباب النجفي" بما يأتي:

فلسطين ستظل وطنا للعروبة
ومن يريد تقسيمها سيقذف بالخيانة
سنحمي حدودها باطراف اسناننا
وسندمر اولئك الذين يريدون بها شرا (الهاتف، ٨٣ (١٩٣٧) : ٢).

وعلى نحو مشابه للقصيدة السابقة، تمزج القصيدة الحالية بقوة بين مشاعر (التضامن) والالتزام السياسي. مع ذلك، لايمكن تحديد خط ايديولوجي واضح، وسيتطور ذلك فيما بعد ويتخذ خطا اشتراكيا واقعيا منحازا. كانت هناك "حياة سيئة"، وحاجة للتغيير، ورفض واضح للظلم. ويمكن قول الشيء ذاته على الكتاب الاخرين خلال هذه المدة.

طريقة التلاوة البغدادية في ذاكرة احد اعلامها

رفعة عبد الرزاق محمد

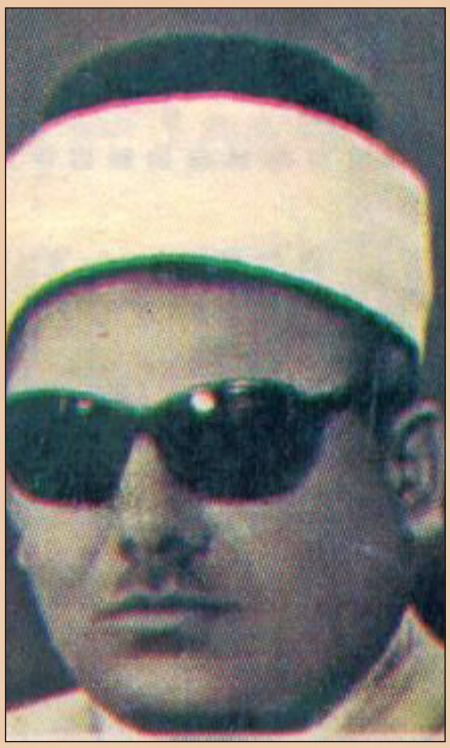

اذا ذكرت مدارس التلاوة القرآنية ، ذكرت الطريقة البغدادية في طليعة القراءات واكثرها انسجاما مع التراث النغمي العربي ، واكثرها حفاظا على التنوع المقامي واصوله التي درج عليها مؤدوه . وقد حافظت الطريقة البغدادية على ما توارثته عبر اجيال من القراء حتى العصر الحديث وشيوع مدارس اخرى ، كالطريقة المصرية التي وجدت لها في العراق مستمعين كثيرين لشيوع استخدام الراديو وزيارات القراء المصريين للعراق . غير ان الطريقة البغدادية استقرت في ذاكرة بغداد ووجدانها . وحفظ تراث الرواد من اعلامها وتناقله الاجيال بكل تجلة واعجاب . وبرزت اسماء كبيرة كالملا عثمان الموصلي وجاسم السلامة والحافظ مهدي العزاوي وملا خماس وعبد الفتاح معروف ومحمود عبد الوهاب وعبد القادر الخطيب وعبد الستار الطيار وعبد المنعم ابو السعد وحيدر الجوادي وعلي حسن داود وقصي ابو السعد وعبد المعز شاكر ومحي الخطيب وعلاء القيسي وغيرهم ممن خانتنا الذاكرة بذكرهم .

ويبقى الحافظ خليل اسماعيل شيخ الطريقة البغدادية والمثل الاعلى في ادائها ، ومن محاسن الايام ان يحفظ تراث هذا الرجل في صدور محبيه وفي الات الحفظ الحديثة ليبقى ثروة اقرائية وفنية للاجيال التالية . ومن محاسن ايامي – وما اقلها – ان التقيت بالحافظ خليل اسماعيل لمرات عديدة في بيته في منطقة العطيفية ، وكان غير بعيد عن بيتي ، وسمعت منه الشيء الطيب عن طريقته في التلاوة وتاريخها . وكان كثيرا ما يؤكد ان الطريقة العراقية تخضع لمذهب حفص ابو عمرو بن سليمان من القراءات السبع المجمع عليها ، وقد عاش حفص في البصرة واتصل بالخليل بن احمد الفراهيدي ثم نزل ببغداد وقرأ بها ... واكد ان العراقيين يعشقون هذه الطريقة ولايفضلون غيرها ، ومن الطريف ان الملا عثمان الموصلي قرأ بالقراءات السبع لمعرفة ردود افعال مستمعيه ، فوجد انهم لايستسيغون غير طريقة حفص التي درج عليها القراء منذ القدم .

وعندما جاء ذكر المقام العراقي وتاثر قرائنا به قال ان تاثرنا واضح جدا ، كالحويزاوي والجاركاه والزنكان والمخالف والخنبات والشطراوي والعنيسي والمصلاوي والخابوري والمثنوي وسواها . وعندما زار الموسيقي العربي سامي الشوا بغداد ، اكد علينا بالمحافظة على القراءة العراقية وقال انها مدهشة ، مع انه رجل قبطي لكنه فنان كبير وله ذائقة دقيقة . وذدر انه تاثر كثيرا بالاستاذ محمد القبانجي وكان صديقا له ، وبعده رشيد القندرجي والحاج سلمان الكفجي وجميل بغدادي وغيرهم من القراء الكبار . واضاف انه لم يأبه بالمواليد ويرى انها صنعة متعبة واحيانا تستهلك القاريء على الرغم من وجود الكثير من اللمحات الفنية ةالتراثية الجميلة . ومن الطريف انه كلن يقول ان المواليد من شغل صوب الرصافة واهل باب الشيخ !! . وانه صديق اغلب قراء المواليد مثل ملا خماس وعبد الستار الطيار وملا طه الشيخلي وملا ابراهيم ابو جريشة . ويقول انه حاول مرة قراءة المواليد في جامع ثريا بالكرخ واجاد .

وذكر انه من مواليد محلة سوق حمادة عام ١٩٢٠ ، ودرس على الملا رشيد والملا عبد الله والملا عواد العبدلي ، ثم درس على الملا محمد ذويب امام مسجد خضر الياس في المدرسة السويدية في المسجد نفسه ، وتعلم التجويد على يد جاسم السلامة النجدي في السنوات ١٩٣٢– ١٩٣٧ ، وبعدها دخل المدرسة الدينية في جامع نائلة خاتون في الحيدرخانة ، وكانت بادارة الشيخ قاسم القيسي ثم الشيخ نجم الدين الواعظ . وتخرج فيها عام ١٩٤٣ ثم دخلها ثانية وتخرج عام ١٩٥٢ وكان متفوقا على اقرانه . ومن ذكرياته فيها ان الواعظ كان يحب ان يسمع منه مقام الخلوتي من الماهوري والمخالف والبهيرزاوي .

وفي عام ١٩٣٧ عين في جامع السراي المقابل للقشلة ، ثم انتقل الى جوامع اخرى كان آخرها جامع الحاج محمود البنية قارئا ومدرسا . وكان الكثير من المعجبين بصوته وطريقته يحضرون الى هذه الجوامع للاستماع اليه وتسجيل ما يقرأه . وقد ذكر انه قرأ بنغم ومقام الزنكران ، ولم يجرؤ احد من القراء على ذلك لصعوبته ، لكنه قرأه باتقان كبير . وكثيرا ما كان يردد الحديث النبوي : زينوا القرآن باصواتكم فأن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا .

وتحدث عن اول دخوله الاذاعة فقال : في عام ١٩٤١ ذهبت الى الاذاعة وكان مديرها فائق السامرائي وسكرتيره سلمان الصفواني ، فاشارا علي ان اختبر لدى الحاج محمود عبد الوهاب فرفضت ! .لكنهم سمعوني بعد فترة وانا اقرأ في جامع الشيخ صندل في الكرخ ، فقبلوني بسرعة ، واول تلاوة لي على الهواء كانت يوم ١١ تشرين الثاني ١٩٤١ واول مذيع قدمني هو حامد محمود الهاشمي ، ثم اخذت اتلو مع عبد الستار الطيار والحافظ صلاح الدين .وفي عام ١٩٤٣ سجلت لي اذاعة لندن بعض التسجيلات اخذت تذيعها الى يومنا هذا .

في عام ٢٠٠٠ اشتد عليه المرض ، فدخل دار التمريض الخاص في مدينة الطب ببغداد في اواخر الشهر الاول من تلك السنة ، واجريت له عملية غسل الكلية ، غير ان هذه العملية استمرت لمرات عديدة ، فأ تعبته كثيرا حتى وافاه الاجل المحتوم ظهر الاربعاء الخامس من تموز ٢٠٠٠ فشيع تشييعا مهيبا من جامع المعز القريب من بيته في العطيفية الى مقبرة الكرخ العامة . ورثاه عدد من الشعراء ، ومنهم الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي بقصيدة مطلعها :

خلفت قالا في الجموع وقيلا
لما رحلت ولم تعد بديلا

ومما قاله فيها :

من بعد (مهدي) و(محمود) علت
نغمات صوتك انجدا وسهولا
وتركت في (عبد المعز) ملامحا
ليظل حسن ادائه موصولا

ارسل القنصل البريطاني رسالة وطردا فيه مجموعة من الوثائق الارشيفية تتعلق بالاحوال العامة في بعض المقاطعات التابعة للدولة العثمانية. هذه الوثائق القليلة الاستعمال هي من المصادر المهمة جداً، اذ تعد في بعض الاحيان المصدر المعلوماتي الوحيد الذي يتناول وصفا لمناطق او احداث معينة حدثت في هذه المناطق، فهي لا تقدم شرحا لما جرى من احداث فقط وانما تطعي وصفا للمشاعر التي انتابت الناس الذين عاشوا مناطق بغداد والبصرة وحيفا وطرابلس وحلب خلال السنوات الغامضة للقرن الاخير من الحكم العثماني. ومن جميع هذه الوثائق التي ارسلها القنصل البريطاني عن المناطق الناطقة باللغة العربية

تقرير القنصل البريطاني في الموصل سنة 1909

تكتسب الوثائق عن بلاد وادي الرافدين: بغداد والبصرة والموصل، اهمية خاصة، فهي تقدم وصفا دقيقا وشرحا مسهبا والسبب وراء ذلك بسيط: ان بلاد وادي الرافدين ذات اهمية سياسية وتجارية خاصة، كونها معبرا الى الهند من ناحية، كما ان للبريطانيين اهتمامات خاصة في بغداد والبصرة من ناحية اخرى.

ونجد في هذه الوثائق ، وثيقة واحدة تلخص لنا موضوعا معينا بذكاء شديد يغنينا عن البحث عنه في بقية الوثائق، ومن امثلة هذه الوثائق الوثيقة المكتوبة عن ولاية الموصل، التي كتبها نائب القنصل اتش. اي. وكي يانغ ، ومؤرخة في كانون الثاني من عام ١٩٠٩، وتتميز هذه الوثيقة باعطاء وصف دقيق للموصل من ناحية خلال تلك المدة، كما انها تمتاز بذكاء شديد في تحليل الحوادث من ناحية اخرى، مما يتيح المجال للباحث بكشف الغموض عن تلك المدة الزمنية. ومما يتيح المجال للباحث بكشف الغموض عن تلك المدة الزمنية. ومما يضيف بعدا اخر لاهميتها، انها كتبت في فترة انتقالية: بعد حزيران ١٩٠٨ وقبل نيسان ١٩٠٩، وكانت السلطة المحلية انذاك تمر في حالة صدمة واخذت الشخصيات المهمة بالابتعاد عن هذه السلطة والتصرف بناء على مصالحها بما يشبه الحكم الذاتي لانفسهم بعيدا عن السلطة الرسمية. ومن امثال هذه التصرفات، وقبل ارسال هذه الوثائق بمدة وجيزة ، تم التخطيط لقتل الشيخ سعيد، شيخ السلمانية، في الموصل عندما كان في زيارة لها. لقد تم اغتياله مع عدد من المرافقين الكرد له في احد الشوارع. ويعطي نائب القنصل البريطاني وصفا دقيقا للالية التي جرت فيها عملية الاغتيال وكالاتي: لقد تم اعداد خطة للهجوم (على الشيخ سعيد) من قبل "المجلس" في احد بيوت هذه الشخصيات المحلية قبل ليلة الاغتيال. وانيطت مهمة الاغتيال بـ "ابو جاسم" وهو اسم يطلق على الفتوة (بلطجي) بعد ان وعدوه، بدون شك، بحلة (ملابس) جديدة او عدة ليرات لتجشمه عناء المشقة، ولا حاجة للقول ان علماء المنطقة، والشخصيات المهمة لم "يخرجوا من بيوتهم ذلك اليوم، وعندما انتهى الامر اطلوا برؤوسهم، وبحراسة اشخاص، في زيارة للوالي، او ربما مكتب البريد وعليهم امارات متصنعة بانهم اسفون لما حصل واعلنوا امام الناس بانهم جاهلون تماما بما حدث، وان هذا عمل لا يمكن تبريره واثار مشاعر الناس بصورة قوية، والحقيقة ان مشاعر هؤلاء الناس الذين يتكلمون معهم لا يمكن ان تثار الا اذا "اثاروها هم انفسهم". ومما يضيف اهمية مضافة لهذه الوثائق انها كتبت عن ولاية اظهرت بريطانيا والملك فيصل عزمهما على ضمها للعراق بين السنوات ١٩٢٢ – ١٩٢٥.

وتلقي هذه الوثائق الضوء على الصورة الاجتماعية والسياسية للموصل في هذه المدة. وتستغرق الرحلة من الاسكندرونة الى الموصل خمسة عشر يوما، في الظروف المناخية الجيدة، وبالطبع تكون الرحلة اطول بواسطة العربات التي ترجها الحمير. اما قوافل الجمال فتستغرق حوالي ستة اسابيع اعتمادا على فصول السنة.

اما السفر من الخليج العربي الى الموصل فيستغرق نفس المدة تقريبا ومن ضمنها السفر لمدة اربعة ايام بواسطة القوارب البخارية من البصرة الى بغداد، ومن هناك يتم السفر برا بالعربات. ويتم تقسيم الرحلة الى (٨-١٢) مرحلة. المقترب للمدينة من الشمال طويل جدا واكثر المحاور المباشرة الى المدينة هو محور سامسون – دياربكر (١٩ مرحلة)، وتستغرق الرحلة من دياربكر الى الموصل بالقوارب بين (٤-١٠) ايام اعتمادا على حالة النهر. وعلى كل حال ففي اي اتجاه تسلكه للذهاب الى المدينة، تعد مدينة الموصل من المدن التي يصعب الوصول لها مقارنة بباقي المدن الكبيرة التابعة للدولة العثمانية، وهذا هو اول عائق يقف بوجه تطور المدينة.

الصيف في المدينة حار ويستمر من نهاية نيسان ولغاية منتصف او نهاية شهر تشرين الاول، تصل درجة الحرارة في الظل احيانا ١٢٠ درجة فهرنهايت، ومما يزيد من حرارة المدينة ان الحيطان مبنية بالجص، وتمتص هذه الحيطان الحرارة في النهار وتطلقها مرة ثانية في الليل جاعلة من ساعات الليل الاولى كأية ساعات من النهار فيما يخص درجات الحرارة العالية.

وقرأ كاتب هذه الوثيقة درجة الحرارة في احد ايام شهر اب فوجدها ١١١ درجة فهرنهايت في الظل. وقد زار المسيو ثفينو Thevenot هذه المدينة عام ١٦٦٤ وكتب ما يأتي: "بعد ساعتين من شروق الشمس، لم يعد ممكنا الخروج من البيت، حتى الساعة التي يتم فيها النوم. وتكون الجدران ملتهبة الى الحد الذي ترتفع فيه حرارة الجسم حتى القدم وكأنه حديد ملتهب". وكطريقة للبرهنة على ان الغرف حارة، فان الدجاج يترك في غرف مقفلة للتبييض في شهر آب من دون اية وسائل صناعية للتدفئة.

اما في الشتاء فان فارق درجة الحرارة مختلف كثيرا، فالشتاء في هذه السنة لطيف ويتخلله في بعض الاحيان انخفاض نسبي لدرجة الحرارة، فنرى الصقيع، لكن قبل ثلاث سنوات تجمد نهر دجلة وماتت اشجار النخيل والبرتقال والزيتون والليمون. وشهري نيسان وتشرين الاول، لطيفان في الموصل ويشبهان بعضهما بشكل لايمكن ان يشابهه اي مكان آخر. ومجيء شهر تشرين الثاني بعد ستة اشهر من الحر اللاهب ما يميز هذه المنطقة، مما استحق ان تسمى بام الربيعين. وفي غياب اطباء اوربيين، يصعب اعطاء تقييم للحالة الصحية ولا تبالغ في القول ان الحالة هنا هي اسوء بكثير مما عليه الحال في اية ادارة اخرى سابقة للمنطقة، ولا يفعل مجلس البلدية شيئا مطلقا – والحقيقة ان السكان يعلنون دائما ان الامور كانت افضل قبل استحداث نظام مجلس البلديات ، عندما كانت كل محلة في المدينة تأخذ على عاتقها الاهتمام بمحلتها، ولايوجد في المدينة نظام للوقاية الصحية والزربال ترمى في الشوارع، حتى جثث الحيوانات تترك في امكنتها وتداس بالاقدام. ان لكل دار بئر والماء في كل مكان غير عذب، لذا يجلب ماء الشرب بواسطة قرب جلدية محمولة على الحمير او البغال من النهر. وان اكثر الامراض شيوعا هي التيفوئيد والملاريا والسل. وخمنت البعثة البريطانية في المنطقة ان عدد المصابين بامراض تتعلق بالسل هو ٨٠ ٪ من السكان. واشارت نفس البعثة ان ١٠ ٪ من السكان يعانون انواعا مختلفة من امراض العيون. وبالتأكيد ان عدد الافراد الذين نراهم في الشوارع يوميا والذين فقدوا البصر كليا او جزئيا هو عدد مرعب ، ويبدوا مرض حبة الموصل (دنابل) والمنتشرة انواع منه في بغداد، عاما وشائعا ونتائجه اللاحقة غالبا ما تكون مدمرة لافراد هذا المجتمع.

المدينة مبنية على منحدرين لارض مرتفعة كافية لتحجز رؤية المدينة كصورة كلية من اكثر اطرافها – وهذا الشكل للمدينة بالذات اكسبها اسما عربيا اخر: الحدباء، والمدينة مسورة بجدران جديدة نسبيا وليس في هذه الجدران ما يميزها في فن العمارة، ولكنها بنيت لصد غارات الاعراب.

يوجد لهذه الجدران (الاسوار) : سبعة ابواب

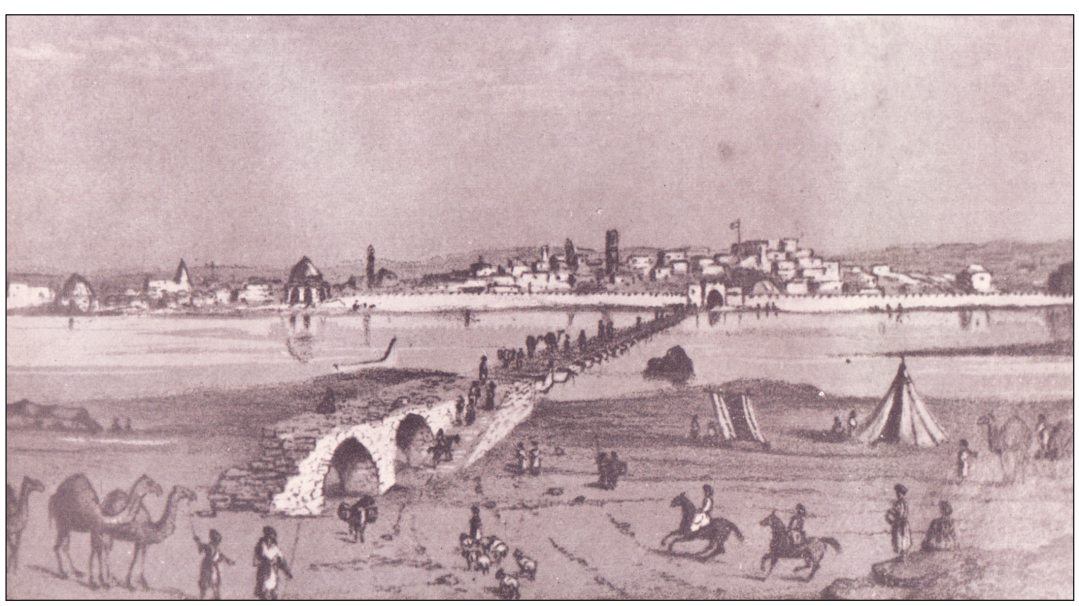

تؤدي للمدينة وتغلق عند غروب الشمس. وهذه الابواب لا تشكل شيئا من حيث القوة والبهاء اذا ما قورنت مع ابواب مدينة ديار بكر، وحتى مدينة الموصل نفسها فهي لا تمثل اي مظهر عمراني متميز، الجوامع فيها فقيرة التأثيث والشوارع غير منتظمة وضيقة لا تفضي في اية اجراء منها الى مناظر خلابة. ويتمكن المرء ان يقطع المدينة بواسطة ستة اتجاهات من دون ان يجد اي اثر للفن او حتى المهارة في البناء . صحيح ان بيوت البيكات كبيرة وتحتوي على ايوانات كبيرة، لكن واجهات هذه البيوت جدران عالية بدون شبابيك، وابواب المدخل ذات فردة واحدة ومشبوكة بالاسلاك الحديدية بكثافة. ان كل دار من هذه الدور بالحقيقة هي عبارة عن قلعة حصينة. وان مجرد ستة اشخاص مسلحين يستطيعون بكل سهولة حمايتها من اللصوص او اعداء البيك. وعلى سبيل المثال كان نائب القنصل البريطاني يسكن في العام الماضي احدى هذه البيوت، والمدخل عبارة عن حلقات متعددة من الممرات، وكان علينا اختيار ليس اقل من خمسة ابواب الى ان نصل لمكان جلوس الزوار، وهو بحاة مفتوحة. ان الحاجة لا تزال تدعو الى انشاء هذه التحصينات في هذه الدور، لان الاثرياء يحتفضون باموالهم مخبئة فيها – في مدينة تحدث فيها جريمة قتل او سرقة كل تسعة ايام على اقل تقدير.

المدينة مقسمة الى ست وثلاثين محلة، كل محلة لها تقاليدها الخاصة وعاداتها وحتى الاختلاف نوعا ما في اللهجة. ويسكن افراد العائلة الواحدة (اي الذين ينتمون الى جد واحد) عادة في نفس المحلة، وفي بعض الاحيان تجد شوارعا كاملة تسكن على جانبيها عوائل تربطهم روابط النسب، وتكون المشاعر بين المحلات المختلفة عادة ودية او متسمة بالكراهية، لقيام شجار بين المحلات المختلفة، فيقوم (٥٠-٦٠) شخصا من كل محلة بالاشتراك بمثل هذاالشجار، وفي هذه الشجارات تستخدم القامات والسكاكين والاسلحة النارية وحتى الاحجار. وفي العام الماضي حدث شجار مثل هذا وقتل فيه شخص واحد، وجرح عدة اشخاص. ان الثارات الشخصية والكراهية بين العوائل عادية ولكنها لا تؤدي في اغلب الاحيان الى شجار علني واضح الاسباب وبصورة مباشرة. وفي الصيف الماضي كاد ان يحدث شجار في احد بيوت المستشارين الا ان اهل الدار احسوا بذلك واستعد الجميع لحالة من الانذار للدفاع عن الدار والمجتمعين فيه وتم افشال محاولة الهجوم عليهم.

في هذه المدينة لا تستطيع الحصول على احصائية دقيقة عن اي شيء. لقد قاوم السكان هناك اية محاولة لتسجيل النساء لدى دوائر النفوس وكذلك الاطفال ايضا. لكن يبلغ عدد سكان المدينة تخمينا حوالي (مائة الف)، ومن هؤلاء تسعة اعشار من المسلمين والبقية مسيحيون ويهود. واللغة المتداولة عدا محلة الاكراد البالغين (٣٠٠٠) نسمة، هي اللغة العربية. ويمكن القول انه لايوجد بين الغالبية المسلمة اية طبقة مثقفة. وحتى بين افراد العوائل العريقة النسب، لايوجد الا القليل ممن يحسنون التركية. وعلى حد علمي، لايوجد في كل المدينة سوى مواطن مسلم واحد يحسن لغة اوربية واحدة، هو داود جلبي ويعمل فتوة لدى مستشاريه الالمان. هذا الرجل هو الوحيد ايضا الذي زار اوروبا من اهل الموصل كلها، فلم يذهب اهل الموصل ابع من اسطنبول في كل حياتهم، والقليل منهم وحتى الطبقة الراقية من ذهب الى الحج. وحتى بغداد او حلب، وهما مدينتان قريبتان نسبيا من الموصل (مسيرة ثمانية وعشرة ايام لكل منهما) معروفتان لدى اهل الموصل من خلال الاستماع الى الذين زاروا المدينتين. وبما انني على صلات طيبة مع العوائل الراقية المسلمة بدون استثناء، اتيحت لي عدة فرص لدراسة عادات وتقاليد هذه العوائل عن كثب خلال الاشهر العشرة الماضية، فعائلة الجليلي، على سبيل المثال، لا تزور المواطنين الاخرين في بيوتهم الا نادرا، وهم قلما يتركون المنزل: ويجلس كبار هذه العائلة بعد الفطور وبعد الغداء وبعد العشاء، في الايوان المخصص للضيوف وتستقبل الزوار القادمين لاداء التحية. اما الاوقات الاخرى فيصرفها الرجال بين حريمهم. وليس في بيوت الموصل حدائق ولا تدل على تصميم فيه روح. هكذا هي معيشة تسعة اعشار البيكات الموصليون خلال السنة تتخلها زيارة او زيارتين لاحدى القرى المجاورة، حيث يمتلكون مزارع هناك، والقليل جدا من هؤلاء الموصليين البيكات يكترثون للنشاط الرياضي، وليس لديهم اي اهتمام اخر غير الحريم (النساء). ويقال ان اكثرهم يشربون المسكرات بصورة كثيرة جدا، وما عدا عائلة الجليلي، فان الاغلبية محبين للمال وطماعين، الى جانب كونهم بخلاء. في بيوتهم يرتدون الملابس التقليدية، ولكن بدأوا مؤخرا بارتداء الملابس الاوروبية في مناسبات قليلة. وفي غرف الضيوف في بيوتهم والمفتوحة الى السماء شيء من الابهة بوجود الخدم المرتدين لملابس شعبية جميلة، ولكن بقية الغرف على العموم متواضعة وكئيبة ونادرا ما تحتوي على سجاد جميل او قطعة اثاث جيدة تبعث على البهجة في النفس.

ومن المحتمل ان مجتمع الموصل هو اكثر مجتمعات الدولة العثمانية كآبة، وان الانطباع الذي يتولد لدى الناظر لهذا المجتمع هو انه قد اميت وانه جيل من المرضى ومحبي الذات. انه جيل لا يستطيع عمل شيء وحاجته قليلة – هذا حال الاغلبية الذين يقضون الايام، يوما بعد يوم، والاشهر، شهر بعد شهر، بلا عمل وبلا هويات وبلا اهداف. والشيوخ في هذا المجتمع لاهم له سوى الجلوس في الدور بينما الاصغر سنا يقشبون على البقية وهم جالسون على عتبة دورهم، ومن المحتمل انه لا يوجد مكان آخر مثل هذا ليس فيه حركة في كل اجزاء الامبراطورية العثمانية. لقد احتل الاتراك الموصل عام ١٦٣٨، وعلى الرغم من ان سكانها اليوم ضعيفي الحيوية والذكاء كما كانوا قبل ثلاثة قرون مضت، فان هذه المدينة لا تزال نفسها منذ زمن الاحتلال وحتى الان، وتحكم من قبل العلماء (علماء الدين) والبيكات. ان المدينة ، بناء على النظرة المحافظة لاهلها – لا تقبل اي جديد يأتيها من الخارج، وقد تم مؤخرا ادخال السكين والشوكة، ولكني اخبرت من مصادر موثوقة بانه لا توجد عائلة مسلمة في كل مدينة الموصل تستعمل الشوكة والسكين عند الطعام الاعند تناول الطعام بوجود شخصيات مهمة يتصادف وجودها على المائدة.

ان نظرة المسلمين للنصارى واليهود الذين يشكلون عشر السكان في مثل نظرة السيد الى عبده، طالما ان هذا العبد محتفظ بادبه. واي تظاهر من قبل تلك الاقلية بالمساواة سوف يسحق بعنف. ويلاحظ في الازقة ان هذه الاقلية تفسح المجال لمرور المسلم وان كان طفلا صغيرا وقبل عدة ايام فقط شاهد كاتب هذه الوثيقة اثنين من اليهود يتنزهون في حديقة، وصادف ان مر مسلم عمره لايزيد عن ثماني سنوات قلما شاهدهما قام برفع حجر من الارض ورماه بقوة عليهما ثم جاء طفل وفعل الشيء ذاته كأنه يرمي الحجر على كلب او طير، انحنى اليهوديان لتجنب الاحجار ولم يقوما باي رد فعل اخر ضد الطفلين.

وفي وقت ليس بالبعيد، تجادلت امراة مسلمة مع بائع ادوية حول سعر دواء يبع لها في المركز البريطاني في الموصل، وقالت المرأة للرجل بعد نقاش طويل انه سوف يندم على ذلك. وفي اليوم التالي وبينما كان هذا الرجل يمر عبر السوق المكتض بالناس، تقدم من خلفه شخص آخر وطعنه طعنة كادت تقتله – اختفى الشخص وسط الزحام ولم يتدخل احد من الموجودين حول الجريمة . ومن البديهي – كما يحدث في كل مرة – لم تكن هنالك ادلة لادانة المرأة ولم يعرف الجاني.

وقبل عدة سنوات، كان من سوء حظ احد افراد عائلة يعقوبية بارز في الموصل بجرح مشاعر عائلة مسلمة قوية. وبعد مدة ليست طويلة تم مباغتة هذا اليعقوبي في الشارع حيث تم سحبه الى ساحة صغيرة وضرب هناك بقسوة وتوفي بعد فترة متأثرا بجراحه. ان مثل هذه الحوادث كثيرة ويمكن ان تتكرر، ولكننا نكتفي بالامثلة الثلاثة اعلاه لندلل على شكل العلاقة القائمة بين الناس في الموصل.

هناك مظهر اخر يدعو الى الاستغراب في الموصل، وهو نظرة المسلمين الى الاديان الاخرى. فعلى الرغم من اعتزاز هؤلاء بالدين الاسلامي، الا انهم لا يلتزمون بتعاليمه اذ ان اقل من ٥٥ قد ذهبوا للحج، ويبدو عليهم عدم الاكتراث ايضا للشعائر الاخرى. وان اولئك الذين يدعون او يتظاهرون بالورع الديني سوف لن يترددوا بالاستيلاء على اموال الوقف المخصصة لبناء وادامة المقابر. وعلى سبيل المثال يوجد شخص يدعى الصابونجي، وهو مشهور باعتداءاته على اموال الوقف ولا احد يستطيع وقفه عند حده. كما ان ذبح الشيخ سعيد، وهو من ناحية النسب يعود الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، انما تدل على عدم احترام اهل الموصل للدين والى كل ما يتصل بهذا الدين – عدم الاحترام الذي لا تقبله الاعراف والتقاليد، وهذه الافعال الشنيعة المتناقضة مع مبادئ الدين لا تكشف عن قسوة اولئك المتشدقين بالمظاهر الدينية دون الالتزام بالجوهر فحسب، بل يكشف عن سلالة من البشر لا يرجى منها الا خير قليل ولا نستطيع ايقافها عن الشر الا بالقوة وتعطينا الاضطرابات الاخيرة فكرة واضحة عن الاساليب التقليدية التي يستعملها البيكات وعلماء الدين المحليين في التلاعب على الحكومة. وقد تم اعداد خطة للهجوم على الشيخ سعيد في احد البيوتات الكبيرة في الموصل في مجلس ضم هؤلاء العلماء والبيكات وتم استقدام (ابو جاسم) او من هو على شاكلته لتنفيذ الخطة. ولقد وعد المجلس (ابو جاسم) بحلة (ثياب) جديدة او عدة ليرات جزاء على عمله. وغني عن القول ان هؤلاء العلماء والبيكات لم يخرجوا من بيوتهم يوم تنفيذ العملية. وعندما انتهى الامر خرج هؤلاء بحراسة شخصية لزيارة الوالي – او ربما دائرة البريد وعليهم امارات الاستنكار لما حدث من جريمة. يقول هؤلاء المتنفذون ان مشاعر الرعية قد تحركت بعنف ازاء هذه الجريمة البشعة. ولكنهم يدركون في اعماقهم ان مشاعر الرعية لا تتحرك الا اذا هم ارادوا ان تتحرك. ان الولاة المتعاقبين يعرفون هذه الحقيقة ويتصرفون على اساسها. لكن على كل حال، يقال ان الحكومة لم تهان بمثل هذا الشكل الذي اهينت فيه يوم ١٦ كانون الثاني الماضي. اما في ما يخص الطبقات الدنيا من المسلمين في الموصل فيمكن وصفهم بالجهلة والقساة. وانا اعتقد انه لايوجد في كل اجزاء الدولة العثمانية اكثر من هؤلاء ويحكم العلماء والرجال البارزين هؤلاء مثل قطيع من الماعز ويعطوهم بين الحين والاخر امثلة على التجبر والقوة الغاشمة التي يتمتعون بها، لهذا فان الحكومة المركزية لا تجد صعوبة في تركيز وادامة سلطتها في المنطقة. والمجتمع الموصلي مجتمع عاطل وسهل الانقياد، وهم يعملون حوالي ثلاثة ايام من ايام الاسبوع السبعة ويقضون باقي الايام في القشب على الناس في المقاهي او تجدهم يشمون الهواء متكئين على سور المدينة. وهم كأي "عاطلين" تجد الرجال منهم على استعداد دائم لتنفيذ الاعمال "الشريرة"، وخصوصا اذا تضمنت السلب والنهب، دون خوف من النتائج او العواقب الوخيمة. لكن هذا لايعني ان هؤلاء يرمون انفسهم بالتهلكة كيفما اتفق وانما يعتمدون على حساب دقيق وذكي لقوة الطرفين المتخاصمين، كما يحسبون بعناية مقدار الاضرار المحتملة التي قد تصيبهم لاحقا. واذا كان الوقت الحاضر دقيقا وحرجا (بسبب مقتل الشيخ سعيد)، فان ذلك كان بسبب توالي ثلاثة ولاة ضعاف ولاية الموصل في السنوات الخمس الماضية.

ويحتمل ان عدد السكان المسيحيين لايزيد عن تسعة الاف نسمة وهم يتوزعون على الطوائف التالية: الكاثوليك الكلدان والكاثوليك السريان واليعاقبة وعدد من الارمن والبروتستانت والارثوذوكس. ان اهم طائفة من هؤلاء في مدينة الموصل هي طائفة الكاثوليك الكلدان، وهم نساطرة في الاصل وانشقوا عن الكنيسة القديمة واعترفوا بسيادة البابا قبل مائتي سنة تقريبا. والرئيس الروحي للكاثوليك الكلدان في ايران وتركيا هو نيافة البطريارك عمانوئيل الذي يقيم في الموصل، وعدد هؤلاء يربو على ثلاثة الاف نسمة ولديهم سبع كنائس وواحد وعشرين قسا واربع مدارس يدرس فيها ثلاثمائة وخمسين طالبا، اما بقية الطلاب من هذه الطائفة فيدرسون في مدرسة بعثة الدومنيكان. اما عدد الكاثوليك السريان فيبلغ حوالي (٢٥٠٠) نسمة، وهم في الاصل يعاقبة انفصلوا عن الكنيسة تحت التأثير الفرنسي ليعترفوا بعد ذلك بسلطة البابا في روما ويقيم رئيسهم الديني في مدينة حلب. ولديهم في الموصل رئيس اساقفة وثلاث كنائس وخمسة عشر قسا وثلاث مدارس. لقد استقرت بعثة الكاثوليك الرومان منذ القرن السابع عشر في هذه المنطقة وتم ادامتها باستمرار منذ ذلك الوقت ولحد الان، وهي الان بادارة ثلاثة عشر ابا دومنيكانيا وعدد من الاخوات المسيحيات. ولدى هؤلاء كنيسة منظمة ومدارس رائعة تقوم بتدريس الف طالب مجانا. يمثل نياقة البابا في بلاد الرافدين بعثة برئاسة المسيو دروري الذي يقيم في مدينة الموصل، ومصروفات البعثة في الاصل كانت على حساب سيدة فرنسية قبل قرنين اشترطت ان يكون ممثل البعثة للبابا فرنسيا دائما وتم مماشاة ذلك التقليد منذ ذلك الحين.

اما اليعاقبة او ابناء الكنيسة السريانية القديمة، فلهم تاريخ متميز في المنطقة. وعلى الرغم من فقرهم، ادامو استقلاليتهم بقوة لمدة (ستة عشر) قرنا، ورفضوا التضحية بمعتقداتهم الدينية وحريتهم مقابل العروض السخية التي عرضتها عليهم كنيسة روما. وهذه العروض هي: دفع رواتب القساوسة والبرهبان والتعليم المجاني و(فتح المدارس) لاطفالهم وتقديم الحماية لهم ولمصالحهم بواسطة الحكومة الفرنسية. ويربو عدد هؤلاء في الموصل على ثلاثة الاف نسمة ولديهم اربع كنائس واربعة قساوسة وثلاث مدارس يدرس فيها حوالي مائتي طفل. اما بقية اطفال الطائفة فيدرسون في مدرسة البعثة البريطانية. واسست جمعية بعثة الكنيسة مدرسة هنا، يدرس فيها حوالي مائتي طالب من البروتستانت اليعاقبة وعدد قليل من المسلمين . ان احد اهم الاعمال التي تقوم بها هذه المدرسة هي تقديم الرعاية الصحية. ولم يصبح هذا الجانب من النشاط دائميا لحد الان وقد اثر غياب الطبيب المسؤول منذ خريف عام ١٩٠٧ بالطبع على تطور هذا النشاط الطبي سلبا. وقبل سفر هذ الطبيب الى بريطانيا، استمر الفرع الطبي في المدرسة ولمدة سنتين متتاليتين بتقديم الخدمات الطبيبة واكتسب احترام وشكر جميع طبقات المجتمع الموصلي: لا يوجد مركز طبي اوربي في كل المدينة عدا هذا المركز، وان اقرب بعثة طبية اوربية تبعد مسيرة ستة عشرة يوما ذهابا وايابا – اي يتوجب على المرضى الذهاب الى بغداد، لذا فان الاهالي تلهفوا لعودة هذا الطبيب الانكليزي. اما الارمن فبلغ عددهم (اربعون) عائلة منهم (سبع وعشرون) عائلة بروتستانتية وسبع عوائل من الارثوذوكس، وللمجموعتين كنيستين منفصلتين، واسهمت جهود البعثتين الفرنسية والبريطانية في تطوير المسيحين، الا انه وعلى الرغم من هذا التطوير لايزال هؤلاء بحالة متخلفة، وربما سبب ذلك وعلى نحو جزئي انهم اقلية ضمن اغلبية مسيطرة عليهم من ناحية، ومن ناحية ثانية انهم ورثوا هذاالنقص في الشخصية من المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه. ان بيوتهم بائسة وظروف نسائهم ليست افضل من ظروف النساء المسلمات، ولا تتجرأ المرأة المسيحية على عبور الشارع بدون ان تغطي وجهها، وهؤلاء النسوة يتناولون الطعام لوحدهن، اي بمعزل عن ازواجهن ولايظهرن في الشوارع برفقة ازواجهن لان ذلك يعد عيبا في ذلك المجتمع.

وتلخيصا لما سبق نقول ان طباع المسيحيين والمسلمين اصبحت متشابهة الى حد بعيد، ان يتزوج الرجال المسيحيون عند سن الثلاثين او حوالي ذلك وتتزوج البنات المسيحيات بعمر (اثنتا عشر او ثلاث عشرة) سنة . وان المستوطنة اليهودية هي الاقدم في الموصل، ولها وجود منذ اسرهم في غابر الايام. وقبل حوالي سنة اقامت (جمعية الاليانس اليهودية) بعثة بادارة شخص مقتدر جدا هو المسيو موريس سيدي. وفي اول امر هذه البعثة جو بهت بمعارضة شديدة من الوالي السابق مصطفى بيك، لكن بعد ذلك ثم الاعتراف بهذه البعثة رسميا، وتقوم البعثة الان بعمل مهم في احدى محلات المدينة التي هي بحاجة ماسة الى هذا النوع من المساعدة ويعني قولنا هذا الكثير.

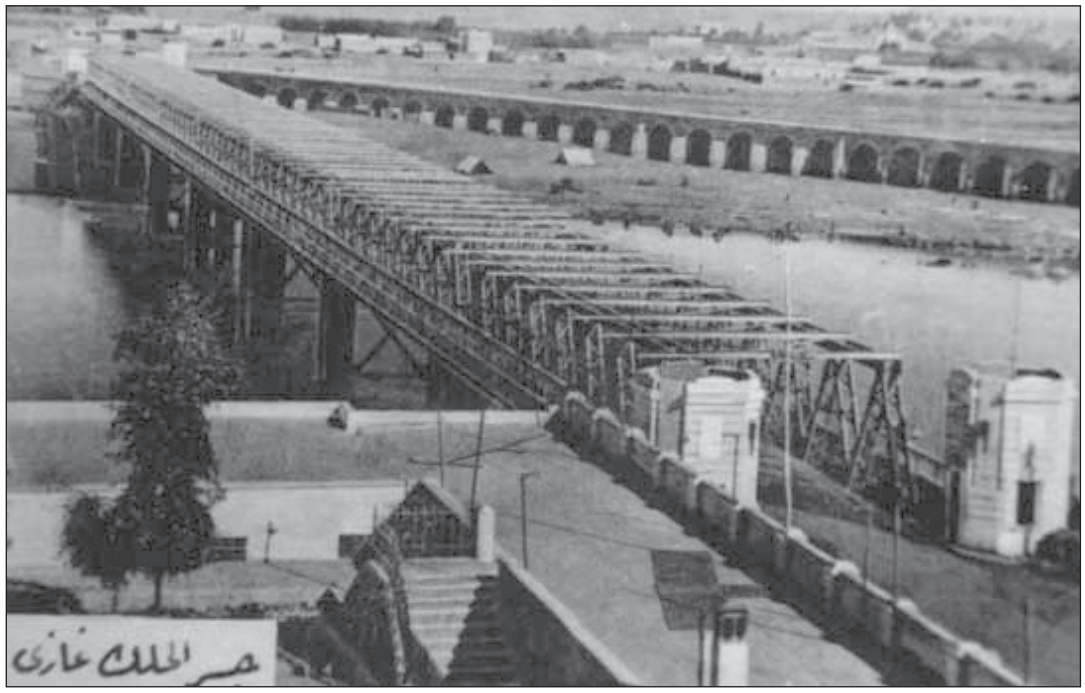

عن كتاب تاريخ الموصل 1984

من ذاكرة التاريخ

في الأول من أيلول 1933، وصل الملك فيصل إلى العاصمة السويسرية [برن] طلباً للاستشفاء، وكان الإعياء بادياً عليه، حيث نزل في فندق[bellevue] المطل على نهر[الآر]،وهناك بدأ الملك رغم وضعه الصحي المتعب يستقبل مراسلي الصحف، والعديد من الأصدقاء، ويدلي بتصريحاته محاولٍ الرد على الدعايات المضللة الموجه ضده، وضد العراق وحكومته على أثر الأحداث التي رافقت قمع ثورة الآشوريين على يد بكر صدقي.

وفاة الملك فيصل الأول في ظروف غامضة وتولي الأمير غازي المُلك

حامد الحمداني

كان القلق والانفعال باديين على وجهه، وتميزت تصريحاته بشدة اللهجة وكان يضرب بيده على الطاولة بقوة، وهو يتحدث مع الصحفيين، فقد كان قد تلقى سيلاً من التهديدات من الحكومة البريطانية بسبب قمع الحكومة العراقية، ونائب الملك [الأمير غازي] للثورة الآشورية، وقد طالبته الحكومة البريطانية بالعودة فوراً إلى بغداد، وأخذ زمام الأمر بيده، و إلا فسوف يتعرض لنتائج وخيمة!!، فقد جاء في آخر إنذار وجهته وزارة الخارجية البريطانية إليه ما يلي:

× إن استمرار الحركات العسكرية ضد الآشوريين، وإصرار الحكومة على موقفها، وعدم إصغائها لأوامر جلالتكم، قد أحدث تأثيراً سيئاً لدى الرأي العام البريطاني وغيره، ولذلك فإن لم تعودوا فوراً إلى العراق، وتقبضوا بنفسكم على زمام الأمور، فان الحكومة البريطانية ستضطر إلى إعادة النظر في علاقاتها العهدية مع العراق×.

قضى الملك فيصل ٣ أيام على تلك الحال، وهو يزداد تعباً، وتزداد صحته تردياً.

وفي ٧ أيلول أصيب الملك بالآم حادة في بطنه، وحضر طبيبه الخاص على عجل، وتم حقنه بحقنة تحت الجلد، حيث أحس بنوع من الراحة.

غير أن صحته تدهورت عند منتصف الليل، وقد حضر إلى غرفته كل من [نوري السعيد] و[رستم حيدر] و[تحسين قدري]، حيث وجدوه وهو في حالة خطيرة يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان آخر ما قاله:

× أنا مرتاح، لقد قمت بواجبي، وخدمت الأمة بكل قواي، ليسر الشعب بعدي بقوة واتحاد×. ثم شهق شهقة الموت. وعلى الفور طّير[نوري السعيد] و[رستم حيدر] برقية إلى الحكومة في بغداد وجاء فيها:

× فجعت الأمة العراقية،عند منتصف الليل بوفاة سيدها وحبيبها جلالة الملك فيصل، وذلك نتيجة نوبة قلبية×!.

الشكوك تدور حول بريطانيا ونوري السعيد

ثارت الشكوك حول السبب الحقيقي للوفاة، حيث ذكر التقرير الطبي إن سبب الوفاة ناجم عن انسداد الشرايين، وانسداد الشرايين كما هو معروف يسبب آلاماً شديدة في الصدر، في حين أن الملك كان قد شعر في تلك الليلة بالآم حادة في البطن، وليس في الصدر، وعليه فقد كان هناك شك كبير في أن السبب الحقيقي للوفاة هو التسمم، وقيل أن الإنكليز، ونوري السعيد، هم الذين كانوا وراء العملية.

ومما زاد في تلك الشكوك ما جاء في الوثائق البريطانية مؤخراً عن تصريح للسفير البريطاني [هيمفريز]الذي جاء فيه:

× إن جعفر العسكري ونوري السعيد اتفقا على أن لا يتحملا أية مسؤولية في المستقبل إذا لم يطرأ تغيير كامل على نفسية الملك فيصل، وأن نوري السعيد مصر على أن لا يتقلد الحكم ما دام فيصل على العرش، وأنه لا يمكن للعراق أن يتقدم على عهد ولي العهد [الأمير غازي]، فلا بد إذا من تغيير نظام الوراثة ليكون [الأمير زيد] ملكاً بعد وفاة أخيه الملك فيصل×.

تم نقل جثمان الملك إلى بغداد في ١٤ أيلول حيث تم تشيعه في موكب رسمي، ودفن في المقبرة الملكية في الاعظمية. وبوفاة الملك فيصل، اختفت فوراً مذكراته الخطيرة، ولم يعد أحد يعرف عنها شيئاً، وكل الشكوك كانت تشير إلى أن وراء عملية الاختفاء تلك كان نوري السعيد.

نوري السعيد يحاول إبعاد الأمير غازي عن المُلك:

وعلى أثر وفاة الملك فيصل، حاول نوري السعيد إقناع رئيس الوزراء [رشيد عالي الكيلاني] و[رستم حيدر] وزير الاقتصاد والمواصلات، والمقرب جداً من العائلة المالكة استبعاد الأمير غازي عن تولي الملك بصفته ولياً للعهد، ودعوة [الأمير زيد] لتولي الملك، بدعوى أن الأمير غازي متخلف عقلياً، ولا يصلح لتولي الملك.

لكن الكيلاني رفض رفضاً قاطعاً محاولات نوري السعيد، وأجرى على عجل مراسيم تحليف الأمير غازي اليمين القانونية أمام مجلسي النواب والأعيان، و جرى تتويجه رسمياً مساء يوم ٨ أيلول ١٩٣٣ ملكاً على العراق، وبذلك اسقط في يد نوري السعيد. وبمناسبة تسلم الملك غازي سلطاته الدستورية، وحسبما ينص الدستور، قدم السيد رشيد عالي الكيلاني استقالة حكومته إلى الملك الذي قبل بدوره الاستقالة

وكلفه من جديد بتأليف الوزارة الجديدة.

اضطراب الأوضاع في عهد الملك غازي

أحدثت وفاة الملك فيصل الأول اختلالاً خطيراً في التوازن السياسي القائم في البلاد، وقد أدت تلك الظروف إلى تفاقم التنافس السياسي بين أولئك الضباط الشريفيين المخضرمين، ومحاولة كل واحد منهم الوصول إلى سدة الحكم مستخدمين البرلمان تارة، وتحريك العشائر تارة أخرى، ووصل بهم الأمر إلى حد استخدام الجيش من أجل تحقيق مآربهم.

وقد وجد[نوري السعيد] الفرصة السانحة لتوسيع نفوذه في إدارة شؤون البلاد، وسعى بكل جهوده للهيمنة على المسرح السياسي. فقد حاول السعيد بدعم من صهره وحليفه[جعفر العسكري] بعد فشله في منع الملك غازي من تسلم سلطاته الدستورية إلى احتوائه، والتأثير عليه لدرجة وصلت إلى حد التدخل في أموره الشخصية.

وكان من بين تلك المسائل الشخصية تدخله في منع زواجه من ابنة السيد[يسين الهاشمي]، وفرض زواجه من[الأميرة عالية] شقيقة عبد الإله، وذلك عن طريق تحريض عمه [الملك عبد الله]الذي تدخل لدى الملك، وحمله على الزواج منها، وكانت تلك الزيجة التي تمت في كانون الثاني ١٩٣٤غير ناجحة، وانتهت بهجر الملك غازي لها حتى مقتله.

الملك غازي بهذه الرغبة، وتدخل نوري السعيد لدى السفارة البريطانية لمنع حل البرلمان، وسارع السفير البريطاني إلى توجيه تحذير إلى الملك غازي من مغبة الأقدام على حل البرلمان خوفاً من أن يأتي الكيلاني ببرلمان يضم أكثرية من الاخائيين.

كما حذر الملك[عبد الله] ابن أخيه الملك غازي من الأقدام على هذه الخطوة، وجاء ذلك في رسالة بعث بها إليه وجاء فيها:

× إن عليك أن لا تحل المجلس تحت أي ظرف كان، وإلا ستظهر الحاجة إلى إعادة الانتخاب من جديد، وعندها ستواجه مخاطر الصراعات الحزبية×. (٨)

بعد رفض الملك غازي حل مجلس النواب، لم يكن أمام حكومة رشيد عالي الكيلاني سوى تقديم استقالتها في ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٣، وتم قبول الاستقالة في نفس اليوم.

لكن الملك آثر أن يبقي العلاقة مع الإخائيين، الذين عملوا معه جنباً إلى جنب خلال توليه المُلك نيابة عن والده الملك فيصل الأول حين غيابه، وعليه فقد كلف زعيم الإخائيين [ياسين الهاشمي] بتشكيل الوزارة الجديدة، لكنه اشترط عليه الإبقاء على المجلس النيابي الحالي. لكن ياسين الهاشمي رفض هذا الشرط، وبالتالي رفض قبول المنصب.

الملك غازي يكلف جميل المدفعي بتشكيل الوزارة

نوري السعيد

جميل المدفعي

على أثر اعتذار ياسين الهاشمي عن تشكيل الوزارة الجديدة، كلف الملك غازي السيد جميل المدفعي بتشكيلها في ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣، وتم تشكيل الوزارة على الوجه التالي:

١ . جميل المدفعي . رئيساً للوزراء.

٢ . نوري السعيد . وزيراً للخارجية، ووكيلاً لوزير الدفاع.

٣ . ناجي شوكت . وزيراً للداخلية.

٤ . نصرت الفارسي . وزيراً للمالية.

٥ . جمال بابان . وزيراً للعدلية.

٦ . رستم حيدر . وزيراً للاقتصاد والمواصلات.

٧ . صالح جبر . وزيراً للمعارف.

وعلى اثر تشكيل الوزارة الجديدة تقدم جميل المدفعي إلى مجلس النواب بمنهاج حكومته الذي جاء خالياً من أي إشارة إلى تعديل معاهدة ١٩٣٠ العراقية البريطانية، وكل ما تضمنه المنهاج لا يعدو عن كونه قضايا عامة وثانوية لا تمس قضايا الشعب الرئيسية، وبعد انتهاء الجلسة صدرت الإرادة الملكية بتعطيل المجلس لمدة ٣٠ يوماً، بحجة إتاحة الفرصة للحكومة لتهيئة أعمالها.

إضراب عام ضد شركة الكهرباء البريطانية:

لم يكد جميل المدفعي يشكل وزارته حتى جابهت حكومته أخطر الأزمات عندما أعلن العمال الإضراب العام ضد شركة الكهرباء البريطانية بسبب استغلالها الجشع لأبناء الشعب.

كانت شركة الكهرباء التي يمتلكها البريطانيون قد فرضت على المواطنين دفع ٢٨ فلساً عن كل كيلوواط، مما أثقل كاهل الطبقات الفقيرة التي كانت بالأساس تعاني من الظروف الاقتصادية الصعبة في ظل الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلدان الرأسمالية، وانعكست آثار تلك الأزمة على حياة الشعب المعيشية.

حاولت نقابات العمال حث شركة الكهرباء على تخفيض أسعار الوحدات الكهربائية، وبذلت جهوداً كبيرة لحمل الشركة على تنفيذ مطالبها.

غير أن الشركة رفضت الاستجابة لتلك الطلبات المتكررة، متذرعة بالتكاليف العالية لتوليد الكهرباء.

فلما وجدت نقابات العمال أن الشركة مصرة على موقفها دعت إلى الإضراب عن استخدام الكهرباء، والاستعاضة عنه بالفوانيس الزيتية، واللوكسات، لحين استجابة الشركة لمطالبهم.

لقيت دعوة نقابات العمال الاستجابة الواسعة من الطبقة العاملة، وتوقف العمال عن استخدام الكهرباء، وتوسع الإضراب ليشمل قطاعات واسعة من الشعب، مما أقلق الحكومة، وجعلها تخشى من تطور الإضراب، ودفعها ذلك الموقف إلى إجراء مفاوضات مع شركة الكهرباء في محاولة منها للضغط على الشركة لتخفيض أجور الكهرباء، لكنها لم تتوصل إلى نتائج إيجابية حاسمة في مسعاها مع الشركة حيث وافقت الشركة على تخفيض فلسين فقط من سعر الكيلوواط الواحد، وهذا ما لم يرضِ نقابات العمال، وجعلها تقرر الإستمرار في الإضراب.

غير أن الحكومة بدلاً من أن تقف إلى جانب الشعب أقدمت على اعتقال العديد من القادة النقابيين النشطين، وإحالتهم إلى المحاكم التي أصدرت بدورها الأحكام ضدهم بالسجن لمدد مختلفة، كما وجهت إنذاراً إلى الصحف التي وقفت إلى جانب الإضراب، وهددت بغلقها، ولما لم تلتزم تلك الصحف بإنذار الحكومة سارعت الحكومة إلى تعطيلها عن الصدور، كما قامت بإبعاد العديد من العمال النشطين إلى مدينة السليمانية.

أما الإنكليز فقد سارعوا إلى جلب قوات عسكرية لحماية الشركة، وحماية رعاياهم في بغداد وكركوك والموصل والبصرة.

لم تعمر حكومة المدفعي طويلاً، فقد دبت الخلافات بين أعضائها حول مشروع [نهر الغراف]، وضرورة بناء سد عليه، فيما ادعى وزير المالية أن المشروع ليس أهم من تسليح الجيش، وقد أدى اختلاف مواقف الوزراء إلى وقوع انقسام في مجلس الوزراء، وهدد بعض الوزراء بالاستقالة، فما كان من المدفعي إلا أن يقدم استقالته إلى الملك في ١٣ شباط ١٩٣٤، وقد تم قبول الاستقالة في ١٩ شباط، وكلف الملك جميل المدفعي من جديد بتشكيل الوزارة في نفس اليوم، وجاءت الوزارة على الوجه التالي:

١ . جميل المدفعي . رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.

٢ . ناجي السويدي . وزيراً للمالية.

٣ . جمال بابان . وزيراً للعدلية.

٤ . رشيد الخوجه . وزيراً للدفاع.

٥ . جلال بابان . وزيراً للمعارف.

٦ . عباس مهدي . وزيراً للاقتصاد والمواصلات.

٧ . عبد الله الدملوجي . وزيراً للخارجية.

لم تقدم هذه الوزارة أي شيء للشعب، بل على العكس من ذلك عمدت إلى إلغاء قانون المطبوعات الذي أصدرته حكومة الكيلاني عام ١٩٣٣، وأعادت القانون الذي شرعه نوري السعيد عام ١٩٣٠، والذي اعتبرته المعارضة أشد وطأة من قانون المطبوعات العثماني لما احتوته مواده من اضطهاد لحرية الصحافة، وقد أثار عمل الحكومة هذا غضباً واستنكاراً شديدين من قبل الصحافة والأحزاب الوطنية، ومن أبناء الشعب.

كما أقدمت هذه الحكومة على منع لفيف من المحامين والمثقفين الوطنيين من إحياء ذكرى ثورة العشرين التي كان من المقرر إقامتها يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤، ولجأت الحكومة إلى اعتقال العديد منهم يوم ٢٨ حزيران في بغداد والحلة والنجف وكربلاء والديوانية بغية منع الاحتفال.

إلا أن الشعب تحدى السلطة، وأقام الاحتفالات في بغداد، و كربلاء، والنجف وألقيت خلال الاحتفالات الخطب الحماسية عن ثورة العشرين، ودعا الخطباء إلى تعديل معاهدة ١٩٣٠ الجائرة، وتحقيق الاستقلال الناجز للعراق.

استقالة المدفعي وتكليف علي جودت الأيوبي بتشكيل الوزارة:

ضج الشعب العراقي بالشكوى من سياسة الحكومة المدفعية، وشيوع ظاهرة المحسوبية والفساد، مما دفع الملك غازي إلى أن يلمح للمدفعي عن تلك الشكاوى، وفهم المدفعي قصد الملك غازي، حيث سارع إلى تقديم استقالة حكومته في

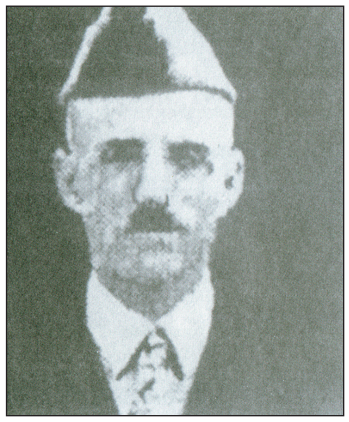
رستم حيدر

صالح جبر

ناجي شوكة

نصرت الفارسي

٢٥ آب ١٩٣٤، وتم قبول الاستقالة في اليوم التالي، وعهد الملك على الفور إلى السيد علي جودت الأيوبي بتشكيل الوزارة الجديدة، وتم تشكيلها في ٢٧ آب ١٩٣٤ على الوجه التالي:

١ . علي جودت الأيوبي . رئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية.

٢ . جميل المدفعي . وزيراً للدفاع.

٣ . يوسف غنيمة . وزيراً للمالية.

٤ . جمال بابان . وزيراً للإقتصاد.

٥ . نوري السعيد . وزيراً للخارجية.

٦ . ارشد العمري . وزيراً للأشغال والمواصلات.

٧ . عبد الحسين الجلبي . وزيراً للمعارف.

وبتولي الأيوبي منصب رئاسة الوزارة أصبح منصب رئيس الديوان الملكي شاغراً وقد حاول نوري السعيد ترشيح نسيبه [جعفر العسكري] لهذا المنصب، إلا أن الملك غازي رفض هذا الترشيح، وعيّن رستم حيدر رئيساً للديوان الملكي.

أعتبر الشعب العراقي هذه الوزارة امتداداً للوزارة السابقة، وهاجمتها المعارضة بشدة، وقد وزعت في ذكرى تتويج الملك غازي في ٨ أيلول ١٩٣٤ منشورات تندد بالحكومة والملك الذي حملته مسؤولية سوء الأوضاع الاقتصادية، مما أثار جزع الحكومة التي حاولت من دون جدوى معرفة مصدر تلك المنشورات، وقد لجأت إلى إغلاق صحيفة الأهالي لمدة سنة، والمعتقد أن الحزب الشيوعي الذي كان قد جرى تأسيسه في ذلك العام كان وراء تلك المنشورات، فقد شهدت البلاد نشاطاً واسعاً للشيوعيين في تلك الأيام، مما جعل الحكومة تشن حملة واسعة ضد العناصر المشتبه بهم، وإحالتهم إلى المحاكم بتهمة الانتماء لحزب غير مجاز.

وضعت الحكومة في مقدمة مهامها حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة، وقد استحصل الأيوبي الإرادة الملكية القاضية بحل المجلس، ومعلوم أن الأيوبي الذي كان يشغل منصب رئيس الديوان الملكي في عهد وزارة الكيلاني السابقة كان قد عارض حل المجلس، ونصح الملك بعدم الاستجابة لطلب الكيلاني، مما دفعه إلى تقديم استقالة حكومته.

قامت الحكومة الأيوبية بأجراء الانتخابات على مقاسها، مستخدمة كل أساليب التزوير والترهيب، والرشوة بشكل علني، وبلغ الأمر بالحكومة أنها لم تسمح للمنتخبين الثانويين بوضع أوراق الانتخاب في الصناديق إلا بعد إطلاع ممثلي الحكومة عليها، لكي تتأكد من مطابقة الأسماء مع القوائم التي أعدتها الحكومة سلفاً.

وهكذا جاء البرلمان الجديد في واقع الأمر بالتعيين وليس بالانتخاب، مما أثار غضب واستياء أبناء الشعب والقوى السياسية الوطنية المعارضة.

لقد كان إصدار قانون الانتخاب على درجتين . كما أراد المحتلون البريطانيون . لكي يضمنوا دائماً وصول مناصريهم إلى عضوية مجلس النواب دون الإلتفات إلى إرادة الشعب، فقد كان الشعب في وادٍ، والحكومات المتوالية على سدة الحكم في وادٍ آخر.

وتعرضت الحكومةً عند افتتاح المجلس الجديد في ٢٩ كانون الأول ١٩٣٤ إلى انتقادات شديدة انهالت عليها من كل جانب، وشدد عدد من النواب على مهزلة حل المجالس النيابية باستمرار، ومن دون أن تنهي تلك المجالس دورتها المقررة بأربع سنوات، مما جعل دور تلك المجالس ضعيفاً جداً، وجعل معظم النواب منقادون للحكومات المتوالية على سدة الحكم لكي يضمنوا فوزهم بالإنتخابات الجديدة على قائمة الحكومة التي تُجري الانتخابات، مما سبب في إفساد الحياة السياسية للبلاد، وإفراغ السلطة التشريعية من جوهر واجباتها.

جوبه إجراء الحكومة بحل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة بنقد شديد وجهه مجلس الأعيان في رده على خطاب العرش، واعتبر الحل مخالفاً للدستور، وفنّد ادعاء الحكومة بأنها إنما أرادت من حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة لكي يكون استفتاءً للشعب، وقالت إن هذا الادعاء عار عن الصحة، إذ ليس في برنامج الحكومة منّ جديد يستوجب الاستفتاء، ولكن الحكومة أرادت المجيء بمجلس يضمن لها الأكثرية فيه.

وعندما بلغ أسماع الشعب ما جاء في رد مجلس الأعيان على خطاب العرش، انهالت برقيات التأييد لهذا الرد، ومستنكرة إجراءات الحكومة غير القانونية. كما دعا عدد من الشخصيات السياسية المعارضة إلى إقامة حفل تكريمي للأعيان الذين وقفوا ضد إجراء الحكومة.

ورغم محاولات الأجهزة القمعية للحكومة منع إقامة الحفل إلا أن القائمين به تحدوا الحكومة وأقاموه، وقامت الحكومة على أثر ذلك باعتقال عدد من المحامين والشخصيات السياسية المشاركة في إقامة الحفل، وقد دفع إجراء الحكومة هذا إلى إرسال برقيات الاحتجاج على تصرفات الحكومة إلى الملك غازي. كما أحتج لدى الملك عدد من الوزراء السابقين الذين منعتهم الشرطة من دخول قاعة الحفل على تصرفات الحكومة.

وجرياً على عادة كل الحكومات السابقة في تأليف أحزاب موسمية لها عند استيزارها لجأت حكومة الأيوبي إلى تأليف حزب لها دعته [حزب الوحدة الوطنية] بدعوى توحيد الأمة، ووحدة الصفوف!!، وما إلى ذلك من المبررات البعيدة عن الحقيقة والواقع.

لم يلقَ ذلك الحزب أي تجاوب شعبي، بل أقتصر على عدد من النواب الحكوميين والوزراء دون الاستناد إلى أي قاعدة شعبية، ولذلك فقد جرى تسميته بالحزب الموسمي الذي لا يلبث أن يضمحل ويزول حال مغادرة الوزارة الحكم.

اشتدت المعارضة ضد الحكومة من قبل عدد من الشخصيات السياسية، وبعض رؤساء العشائر الذين استبعدتهم الحكومة من مجلس النواب، وتداعوا إلى عقد اجتماع لقادة المعارضة في دار السيد حكمت سليمان، وقد حضر الاجتماع كل من [رشيد عالي الكيلاني] و[ياسين الهاشمي] والعديد من رؤساء العشائر الذين كونوا حلفاً معارضاً للحكومة، والعمل على إسقاطها، وقد جرى انتخاب ياسين الهاشمي زعيماً لهم، ووضعوا لهم ميثاقاً تضمن الإخلاص للملك، والمحافظة على الدستور، وحل المنازعات بين العشائر دون الرجوع إلى الحكومة، وعدم جواز الاشتراك في الحكم دون موافقة القائمين بهذا الحلف.

جوبه إجراء الحكومة بحل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة بنقد شديد وجهه مجلس الأعيان في رده على خطاب العرش، واعتبر الحل مخالفاً للدستور، وفنّد ادعاء الحكومة بأنها إنما أرادت من حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة لكي يكون استفتاءً للشعب، وقالت إن هذا الادعاء عار عن الصحة، إذ ليس في برنامج الحكومة من جديد يستوجب الاستفتاء، ولكن الحكومة أرادت المجيء بمجلس يضمن لها الأكثرية فيه.

وعندما بلغ أسماع الشعب ما جاء في رد مجلس الأعيان على خطاب العرش

وثائق تاريخية

كيف ساهم الاطباء العراقيون في مكافحة (الكوليرا) في مصر؟

من مذكرات الراحل د. هاشم بركات احد اعضاء البعثة العراقية الى مصر

الملك عبد الله مع الوفد العراقي الطبي العائد من القاهرة في طريقه الى بغداد وعن يمينه د. هاشم بركات ١٩٤٧ امام قصر الشونة في الكرك

ونعود بالذاكرة الى عام ١٩٤٧ وبالتحديد خلال شهر ايلول من ذلك العام حيث اجتاحت الكوليرا القطر المصري الشقيق وكانت بؤرة الانتشار قرية القرين قرب السويس.. فعندما انتهت الحرب العالمية الثانية اخذت بريطانيا تسحب جيوشها من منطقتي الشرق الاوسط والاقصى، كان مركز تجمع تلك الجيوش هي مدينة السويس لنقلهم من هناك الى اوروبا وانكلترا بعد انقضاء فترة الحجز الصحي والاجراءات الصحية المقتضية ويظهر ان بين اولئك الجنود من كان مصابا او ناقلا لجراثيم الهيضة (الكوليرا) ولما كانت قرية القرين قريبة من مدينة السويس فقد كان بعض سكانها يذهبون للعمل في معسكرات الجيش البريطاني بالسويس ومن هناك انتقل وباء الكوليرا الى قرية القرين ومنها الى القاهرة.

واعلنت وزارة الشؤون الاجتماعية (وكانت مديرية الصحة العامة من المديريات التابعة لها) اعلنت عن عزمها ارسال بعثة طبية الى القطر المصري لمكافحة الكوليرا وقد تطوعت للاشتراك في تلك البعثة الطبية فوجهت لي وزارة الشؤون الاجتماعية كتاب شكر نظرا لتطوعي هذا.

وقد تالفت البعثة الطبية من الدكتور سامي شوكت رئيسا وعضوية كل من الدكاترة شريف عسيران واحمد صميم الصفار وهاشم بركات وجورج اوسي وهاشم نشأت وحسين توحله ومحمد الحمداني وقد غادرت البعثة بغداد بتاريخ ١٩٤٧/١٠/٢ متوجهة الى مصر عن طريق البر من الاردن وفلسطين (حيث كانت لا تزال تحت الانتداب البريطاني) وذلك بالسيارات حتى الاسماعيلية ومن ثم بالقطار الى القاهرة.

وكانت عمان في تلك الاثناء قرية صغيرة شوارعها مترية وغير مبلطة وان الفندق الوحيد الذي يمكن السكن فيه هو فندق فيلادلفيا ومن عمان توجهنا بالسيارات ايضا الى فلسطين لكي ندرك الاسماعيلية في المساء قبل ان يتحرك منها القطار متجها للقاهرة.

وكانت الحكومة البريطانية حينئذ قد قررت الانسحاب من فلسطين وكانت المناوشات والمعارك العسكرية مستمرة بين العصابات الصهيونية والقوات الفلسطينية والمتطوعين العرب، وما ان وصلنا حيفا حتى كانت قد اقتربت حلول ساعة منع التجول.. فمنعتنا القوات البريطانية من مواصلة السير للاسماعيلية خشية ان يتعرض اعضاء البعثة الطبية للطلقات النارية من الجانبين المتقاتلين.

ولما كان لابد لنا من مواصلة السير لندرك القطار قبل ترحكه والذي حجزت لنا فيه عربات النوم كما ان ممثلي وزارة الصحة المصرية واعضاء السفارة العراقية سيكونون في استقبالنا بمحطة قطارات القاهرة في موعد وصول قطار ذلك اليوم.

وهنا كلفني رئيس البعثة الدكتور سامي شوكت للتفاوض مع الضابط البريطاني للمسؤول فبينت للضابط مهمتنا وضرورة وصولنا محطة قطار الاسماعيلية (الذي حجزت لنا فيه عربات النوم) قبل تحركه.. وضرورة وصولنا محطة القاهرة في الموعد حيث يكون المسؤولون في استقبالنا.. فاوضح لي الضابط ان هذه الاجراءات هي عامة وليست خاصة بفئة دون اخرى والغرض منها هو سلامة الاشخاص وعدم تعرضهم للخطر..

وانتهت المناقشة بان وافق على مواصلتنا السير.. بعد ان وقعت تعهدا خطيا نيابة عن البعثة بان المسؤولية تقع على عاتقنا فيما لو تعرضنا للخطر.

فواصلنا السير وبلغنا محطة قطار الاسماعيلية قبل تحركه وفي عربات نوم القطار علقت صور الاثار في الاقصر واسوان وابي سنبل ، وقد كتبت تحتها العبارة التالية "اذا لم تزر الاثار في الاقصر واسوان فكانك لم تزر مصر" وقد جنيت تلك العبارة في حينه دعاية بارعة لتحريض المسافرين على زيارة الاقصر واسوان..

ولكني وجدت ذلك صحيحا زرت تلك الاثار مع قية اعضاء البعثة (عدا الدكتورين سامي شوكت وشريف عسيران اللذين فضلا البقاء في القاهرة) حيث طلب منا المسؤولون في وزارة الصحة المصرية السفير الى هناك (بعد ان قضينا حوالي لشهر في مستشفى العباسية الذي خصص للمرضى المصابين بالكوليرا لعلاجهم.. وخلال ذلك الشهر حيث كان علاج المصابين لا يتعدى زرق المحلول الملحي في اوردة اذرعهم وان تعذر ذلك ففي اوردة فخذهم وان تعذر ذلك نزرق المحلول في جوفهم البطني وكم كان مدهشا ان يستجيب النبض بعد زرق المحلول الملحي في الجوف البطني فتحسه بالعين اولا ثم في الرسغ فتنتقل ابرة الزرق من البطن الى الفخذ ثم الى الذراع.

لقد كان من حسن الحظ ان وباء الكوليرا في القاهرة كان محصورا في مكانين منعزلين وهما سجن القاهرة ومستشفى الامراض العقلية وبالرغم من منع الزيارات عن المرضى والمسجونين.. الا انها لم تنفذ بصورة محكمة.. فقد جلب لمستشفى العباسية ذات يوم من سجن القاهرة مصاب بالكوليرا وهو في الرمق الاخير.. فما ان وصل المستشفى حتى لفظ انفاسه الاخيرة.. ولدى تشريح جثته وجد في معدته اصبع كف مطاطي جراحي وهو مليء بمادة الحشيش.. فظهر فيما بعد ان احد زائريه قد جلب له هذه الهدية مهربا اياها في شرجه وعندما سلمه الهدية بلغها في جوفه مع ما لوثها من جراثيم الكوليرا لأن الزائر كان ناقلا للمرض، وحيث ان تلوث العبوة بضمات الكوليرا كان شديدا فقد قضت على السجين بعد وقت قصير.. وعلى ما اذكر بان هذه الحالة قد نشرت في (اللانست) في حينه.

كان مستشفى العباسية يعج بمندوبي مبيعات شركات الادوية وكل عمل عينات من ادوية شركته يحاول ان يغري ادارة المستشفى بتجربتها وكانت الادوية المعروفة والتي كانت تجرب في تلك الايام هي مركبات السلفا والبنسلين ومحاليل البرمنغنات والديتول واللايزول وغيرها من المعقمات.

وكانت وقايتها من المرض هي غسل اليدين جيدا بالماء والصابون وعدم تناول الاطعمة غير المطبوخة وكنت ترى على موائد الطعام في الفندق ثمار الليمون الطازج لاضافة عصيرها الى اكواب الماء قبل شربها على اعتبارها ان الحموضة تقضي على ضمات الكوليرا.

وبعد دوامنا حوالي الشهر في مستشفى العباسية لعلاج مرض الكوليرا اخذت الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية تنشر انبء تسرب الوباء الى المحافظات المجاورة للقاهرة عن طريق ناقلي المرض او عن طريق جثث الموتى التي تنقل مخية تحت اكوام الخضراوات في عربات النقل اثناء دفنها باكفان مشبعة بالمعقمات ولحود مليئة بالجير المطفى ان اعلن عن وفاتها لدى السلطات الصحية ولهذا تنتقل مهربة الى خاج القاهرة لتدفن من قبل اهليهم حسب الطقوس الاعتيادية وتكون الخضراوات التي تغطى لتخفي تلك الجثث اسرع الوسائط لانتشار وباء الكوليرا خاصة اذا كانت تلك الخضراوات تؤكل بدون طبخ مثل الخس والطماطم والخيار وغير ذلك مثل اللهانة والقرنابيط.

لقد كان من حسن الحظ ان وباء الكوليرا في القاهرة كان محصورا في مكانين منعزلين وهما سجن القاهرة ومستشفى الامراض العقلية وبالرغم من منع الزيارات عن المرضى والمسجونين.. الا انها لم تنفذ بصورة محكمة.. فقد جلب لمستشفى العباسية ذات يوم من سجن القاهرة مصاب بالكوليرا وهو في الرمق الاخير.. فما ان وصل المستشفى حتى لفظ انفاسه الاخيرة.. ولدى تشريح جثته وجد في معدته اصبع كف مطاطي جراحي وهو مليء بمادة الحشيش..

وهكذا اخذ الوباء في الانتشار في شمال القطر المصري (من قرية القرين في السويس) جنوبا الى القاهرة ومن القاهرة الى الفيوم وقنا الاقصر والى اسوان في اقصى الجنوب.

ولهذا طلبت السلطة الصحية منا الانتقال من مستشفى العباسية بالقاهرة حيث كنا نعالج مرض الكوليرا الى محافظة الفيوم لنتولى مهمة وقاية السكان من المرض عن طريق زرقهم بلقاح الكوليرا.

ان الحكومة المصرية هيأت للبعثة الطبية العراقية مساكن مريحة اينما حللنا ففي القاهرة كنا نقطن في فندق الكونتنتال وهو من فنادق الدرجة الاولى ويقع في ميدان ابراهيم باشا مقابل دار الاوبرا التي بناها الخديوي اسماعيل باشا لتعزف فيها اوبرا عايدة لمؤلفها الموسيقار الايطالي (فردى). ولكن دار الاوبرا هذه احرقت فيما بعد ضمن ما اتى عليه حريق القاهرة لزعزعة حكم عبد الناصر والذي خطط له ونفذه الاسرائيليون والذي عرف فيما بعد بفضيحة لافون (وزير الدفاع الاسرائيلي)..

ويقع فندق الكونتنتال ايضا مقابل اوبرا بديعة (وهو ملهى ليلى كبير لصاحبته الفنانة اللبنانية بديعة مصابني) والتي كانت زوجة الممثل الكوميدي المشهور نجيب الريحاني.

وكان ملهى اوبرا بديعة مجاورا لمبنى الاوبرا فناله الحريق.. وبعد ذلك غادرت بديعه مصابني القاهرة وعادت الى شتورة موطنها الاصلي لبنان وكانت تملك هناك مزرعة خصصتها لانتاج الالبان ومشتقاتها واتخذت محلا صغيرا (على الجهة اليمنى من الطريق العام الذي يصل بين شتورة وبيروت) لبيع انتاج مزرعتها وكان محلا مشهورا يرتاده الكثيرون نظرا لنظافة وجودة معروضاته..

وكذلك تقابل فندق الكونتنتال حديقة الازبكية وهذه الحديقة مشهورة لسببين، الاول: ان سور حديقة الازبكية كان يتخذه باعة الكتب القديمة والمقروءة سابقا معرضا لكتبهم المستعملة والتي تباع عادة باثمان بخسة لتكون في متناول غالبية السكان.. والثاني: ان حديقة الازبكية كان يقام فيها سرادق كبير في اول يوم خميس من بداية كل شهر ميلادي حيث تغني ام كلثوم حفلتها الشهرية مساء الخميس ليلة الجمعة في بداية الشهر وقد حضرت احدى تلك الحفلات ولما كان السرادق مغطى ومكتظا بالحاضرين واكثرهم من المدخنين ولعل الكثير من هؤلاء المدخنين كانوا يتعاطون الحشيش فقد كان الجو خانقا لغير متعاطي الحشيش..

وكذلك تسنى لي حضور احدى المسرحيات التي افتتح بها موسم الاوبرا وهكذا انتقلنا للعمل من القاهرة الى محافظة الفيوم..

وكان مسكننا هناك في فندق الاوبرج دي لاك المطل على بحيرة قارون والفندق جميل وحديث يطل على البحيرة التي تشتهر بوجود سمك مرجان (المزلق) فيها.. كما ان محافظة الفيوم تشتهر بفراخ (الدجاج) الفيوم.. وان من الاكلات المصرية المشهورة هي الملوخية بالارانب او الملوخية بفراخ الفيوم. وقد امر مدير الفندق ذات يوم ان يقدم لي وجبة غداء من الملوخية بفراخ الفيوم وكنت اتذوق الملوخية لاول مرة.. والتي اصبحت اليوم من اكلاتي المفضلة.. وكانت السطلات الصحية في مستوصفاتها ومراكزها تطعم المراجعين من السكان اما نحن فقد اوكل الينا تطعيم بعض تجمعات الفلاحين واهليهم في اقطاعيات الوجوه والاثرياء واذكر منها اقطاعية الوجيه محمود بك ديهوم وهو رئيس عشيرة وعضو في المجلس النيابي وعندما ذهبنا لاجراء التطعيمات في اقطاعيته عمل لنا وليمة عامرة في قصره خلدت بصور تذكارية اخذت لنا معه ومع بعض افراد عائلته.

ومن الغيوم توجهت البعثة الى قنا.. وقنا هي احدى محافظات الصعيد والنساء فيها لا يختلطن بالرجال مثل بقية انحاء الصعيد فعندما تولد انثى العائلة يحلق شعر رأسها وترتدي (الجلابية) مثل اقرانها من الصبيان وتختلط وتلعب معهم لافرق بين صبي وصبية (بالمظهر) بل ان اهلها ينادونها با (واد) كما ينادون اقرانها من الصبيان.. وحتى بلوغ الفتاة من الثانية عشرة.. عند ذلك تلازم الفتاة دار ابيها ولا تغادره الا مرتين في حياتها الاولى الى بيت زوجها والثانية الى المقبرة وقد سر الاهلون والعمدة لاننا غرباء عن المنطقة فهذا ما يجشع نساءهم عن كشف اذرعهن لزرقها باللقاح..

وذات يوم جاء لمقر البعثة احد قساوسة الكنيسة وطلب منا ان نذهب الى مقر الكنيسة لاجراء التطعيمات للنسوة المسيحيات حيث تجمعهن الكنيسة ليلا لتعذر سيرهن في الطريق نهارا.. وقد تعجبنا كثيرا لحديثه على اعتبار ان المسيحيين اكثر تحررا من المسلمين.. ولكن الامر كان العكس من ذلك فان لهم نفس العادات والفعال.

والصعايدة على العموم ينطقون حرف الجيم مثل ما ينطقه العراقيون بعكس اهل القاهرة الذين ينطقونه بالكاف (المشددة).. وقد كنت اتحدث مع احد الزملاء من افراد البعثة حيث قلت له.. بعد ان اغسل (ايديه) .. واذا باحد الصعايدة الذين كانوا بجوارنا يقول لصاحبه: الله دول يتكلمون عربي!! ده يقول (ايديه) زينا!!.

وبعد ان انتهى عملنا في قنا طلب منا التوجه الى الاقصر للمشاركة في حملة التعطيم ضد الكوليرا هناك.. والحقيقة اننا استمتعنا بوجودنا في الاقصر حيث زرنا معابد الاقصر والاكباش وكذلك مقابر الفراعنة في وادي الملوك ووادي الملكات ومقبرة توت عنخ امون ومعبد حنشبون الفريدة من نوعها.. وقد تهيأت لنا فرصة للذهاب الى اسوان حيث شاهدنا سد اسوان ومعبد (ابو سنبل) والذي غمرته مياه بحيرة سد ناصر (فيما بعد) وقد نزلنا هناك بفندق كاتاراكت (ومعناها السد) حيث كان يوجد في الجهة المقابل للفندق عبر نهر النيل كان يوجد قبر الاغا خان زعيم الطائفة الاسماعيلية وقد بني القبر على هضبة عالية، كان لابد لمن يزور القبر ان يلهث من التعب نتيجة لتسلقه درجات السلم الكثيرة قبل ان يبلغ القبر!! وقد رأينا وردة حمراء واحدة على القبر فقيل لنا ان زوجة الاغا الاخيرة (البكم ام حبيبة) تضع كل يوم وردة واحدة على القبر عند زيارتها له.. والبكم او زوجة الاغا الاخيرة كانت احدى ملكات الجمال الفرنسيات فارعة الطول وبارعة الجمال اعجب بها الاغا وتزوجها وقد ارتضت به زوجا رغم تقدمه بالسن نظرا لما يتمتع به من منزلة دينية واجتماعية ويكفي غرورها انه كان يوزن سنويا في ذكرى ميلاده بالذهب والجواهر التي يقدمها هدية له ابداء طائفته من الاسماعيليين بالرغم من بدانته وثقل وزنه!.

وكنا نشاهد (البكم) من شرفة فندق كتاراكت وهي تنزل من برجها العالي مرتدية الساري الهندي لكي تستقل الزورق البخاري حيث يبحر فيها بمياه النيل مساء كل يوم للترويح عن النفس.

وبعد زيارات العمل لمكافحة الكوليرا في كل من محافظات الفيوم وقنا والاقصر والزيارات السياحية التي رافقتها لكل من اثار الاقصر واسوان طلب منا العودة الى القاهرة.

وكانت عودتنا للقاهرة اشارة الى انتهاء عملنا في الاسهام بمكافحة الكوليرا وبداية للترويج عن النفس وزيارة معالم القاهرة وحضور حفلات التكريم التي اقيمت لنا فقد زرنا المتحف المصري (الانتيكخانة) كما يسميه المصريون كما حضرنا تمثيلية لفرقة نجيب الريحاني وقد اقامت وزارة الصحة المصرية حفلة تكريم للوفود الطبية المشاركة في مكافحة الوباء كما حضرنا حفلة غناء للسيدة ام كلثوم في حدائق الازبكية..

اما الحفلات الخاصة التي اقيمت للوفد الطبي العراقي فقد اقامت السيدة قوت القلوب الدمرداشية حفل غداء فاخر في قصر العائلة بالقاهرة حضره بعض موظفي السفارة العراقية واذكر منهم السكرتير الاول في السفارة وهو زوج للسيدة رباب الكاظمي ابنة احد شعراء العراق السيد عبد المحسن الكاظمي وكان قد ترك العراق واثر الاقامة في مصر.. والسيدة قوت القلوب الدمرداشية وفدية الميول ولهذا كان حديثها ضد وزارة النقراشي التي جاء بها القصر للحكم فمن اقوالها في ذلك اليوم ان الاستعمار البريطاني كان ارحم من الاستعمار الوطني في هذه الايام.

وكان الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق حينذاك متزوجا من سيدة مصرية هي فائزة الطرابلسي وان اخاها دعى الوفد الطبي العراقي الى وليمة عشاء في شقته بالقاهرة وكان من بين الحضور في تلك الليلة فخامة جميل المدفعي احد رؤساء الوزراء السابقين في العهد الملكي واللواء اسماعيل صفوت احد قادة الجيش العراقي وممن شاركوا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

ومن حفلات العشاء التي اقيمت للوفد الطبي العراقي وليمة عشاء في شقة الممثل المشهور حينئذ انور وجدي وزوجته انذاك ليلى مراد في عمارة الايمو بيليا وكانت اعلى عمارة في القاهرة وكان انور وجدي وزوجته المطربة ليلى مراد ثنايا ناجحا لافلام عديدة مثل فلم ليلى وفلم ليلى بنت الاغنياء وليلة ممطرة وغيرها.

وذات يوم جاءنا الى ردهة الاستقبال في فندق الكونتنتال وكنا اعضاء البعثة الطبية مع رئيس الوفد الدكتور سامي شوكت جاءنا يهودي عراقي اسمه (عزرا) يعمل في تصدير الافلام السينمائية المصرية الى سينما غازي في بغداد فقال للدكتور سامي شوكت اني مكلف من الاستاذ انور وجدي وزوجته المطربة ليلى مراد بدعوة الوفد الطبي العراقي الى وليمة عشاء في شقتهم هي عمارة الايموبيليا.. ويظهر ان (عزرا) هو الذي طلب من انور وجدي وزوجته دعوة الوفد الطبي العراقي ليبين لهم انه على صلة بالوزراء العراقيين وان هذه الصلة والمعرفة بالوزراء العراقيين ترفع من شانه في نظر الفنانين المصريين الذين يتعاملون مع السوق السينمائية العراقية.

وقد قبل الدكتور سامي شوكت الدعوة وكانت حفلة شيقة ووليمة فاخرة سجلتها بعض اللقطات من عدسة الكاميرا.

ومن زبائن صالة الاستقبال في فندق الكونتنال كانت الراقصة والنجمة السينمائية تحية كاريوكا والنجمة السينمائية ليلى فوزي الجميلة جدا وزوجها قبيح الوجه المغني عزيز عثمان والذي نظمت له اغنية خاصة تناسب وضعهما ليغنيها ومطلعها (الغراب زوجوه حمامة) اما الفاتنة ليلى فوزي فعندما سألها احد الصحفيين ما السبب الذي دعاك الى هذا الزواج؟ اجابته : يا اخي واحد حامل ذقنه ليه الثاني متثاقل منها؟ ولعل هذا الثنائي المتناقض (الجمال والقباحة) دعى حفني بك محمود وهو نائب في البرلمان المصري واحد الاثرياء واخ محمد محمود باشا احد رؤساء الوزراء المصريين دعاه ليشارك هذا الثنائي جلستهم اليومية الصباحية في صالة فندق الكونتيال ليكون عذولا او منافسا للمطرب الزوج والله اعلم.

وكذلك زرنا تمثال ابو الهول واهرامات الجيزة وصعدنا في داخله حتى وصلنا غرفة دفن الفرعون وكذلك حضرنا حفلة تمثيلية في دار الاوبرا المصرية وكذلك زرنا ستوديو مصر للتمثيل السينمائي وكانت يمثل فيه وبصور فلم سينمائي وكان المشهد حوار غزلي بين بطلي الفلم تحية كاريوكا وسليمان نجيب..

وقد رأينا في مساحة الاستديو في مساحة ديكور بوابة قصر حيث اعد لتصوير بعض مشاهد فلم فاطمة لمؤلفه مصطفى امين وتمثيل السيدة ام كلثوم الاستاذ انور وجدي.

وزرنا مضمار سباق الخيل وكان المبنى ملتقى للاثرياء والفنانين وقد التقينا هناك بزيارتنا تلك الفنانة الممثلة زوزو ماضي وابنتها ملكة جمال مصر في ذلك العام الانسة ايفون ماضي وقد رحبت بنا لما عرفت اننا اطباء عراقيين جئنا لمكافحة الكوليرا في مصر وقد سجلنا معا بعض اللقطات من الصور الفوتوغرافية.

وهكذا كانت زيارتنا للقطر المصري زيارة عمل للاسهام في مكافحة الكوليرا تخللتها زيارات سياحية واطلاع على حضارة مصر التاريخية والحديثة.

وقل العودة طلب منا التوجه الى قصر عابدين لتسجيل اسماءنا في سجل التشريفات الملكية وكذلك ذهبنا لزيارة وزير الصحة وكان قبطيا اسمه بطرس غالي وهو والد الدكتور بطرس بطرس غالي امين عام منظمة الامم المتحدة سابقا كما زرنا الدكتور توفيق شوشة مدير عام وزارة الصحة حينئذ والذي اصبح بعدئذ المدير الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية (فرع البحر الابيض المتوسط) كما صحبنا لزيارة المختبر البكتريولوجي الرئيسي في القاهرة وقد اغتنمنا الفرصة للحصول على تقرير مختبري يثبت ان اعضاء الوفد غير ناقلي جراثيم الكوليرا بعد اتمام عملية الزرع والفحص المتخبري.

وحان وقت الرحيل من القاهرة والعودة الى العراق بواسطة القطار وقد ودعنا مثل ما استقبلنا من قبل ممثل عن وزارة الصحة وممثل عن السفارة العراقية ونقلنا القطار الى الاسماعيلية ومنها انتقلنا الى حيفا في فلسطين وكانت لا تزال تحت الانتداب البريطاني ولم يتم انسحاب الجيش البريطاني منها بعد.

كنا نشاهد (البكم) من شرفة فندق كتاراكت وهي تنزل من برجها العالي مرتدية الساري الهندي لكي تستقل الزورق البخاري حيث يبحر فيها بمياه النيل مساء كل يوم للترويح عن النفس. وبعد زيارات العمل لمكافحة الكوليرا في كل من محافظات الفيوم وقنا والاقصر والزيارات السياحية التي رافقتها لكل من اثار الاقصر واسوان طلب منا العودة الى القاهرة.

د. هاشم بركات بالزي العسكري

أول محاولة إنقلابية تقوم بها الشرطة في تاريخ العراق

حركة مدير الشرطة العام علي خالد حجازي

إعداد د. أكرم عبدالرزاق المشهداني

اللواء علي خالد حجازي هو أحد ضباط الشرطة المشهود لهم بالصرامة والشدة، شغل عدة مناصب ضمن الشرطة منها مدير شرطة بغداد ثم مديراً عاماً للشرطة العراقية من (١٩٤٨/٤/١٤ لغاية ١٩٥٠/٢/١٢) تخرج من الكلية الحربية في استنبول، وخدم مع الشريف حسين في مكة، وكان مخلصا وفيا له، وبعد تتويج الملك فيصل الأول بن الحسين ملكا على العراق تم نقله إلى العراق، وعين ضابطا في الشرطة العراقية، وكان من المقربين إلى البلاط .

كتبت عنه جريدة (الاستقلال) في عددها ٩٠٢ في ١٩٥٠/٢/١٤:

(منذ كان السيد علي خالد الحجازي مدير شرطة بغداد كان الناس يتهيبون أسمه، ويحذرون بطشه، وكان يتملق بعضهم إليه، ويسعى آخرون إلى الانتفاع بمركزه، وكان له أنصار ومحاسيب وأصحاب، يشيدون بكفاءته ويؤكدون إخلاصه، ويذهبون إلى حد الترويج بأن سلامة المملكة مقترنة بوجوده على رأس هذه القوة المسلحة (الشرطة)..

وكتب عنه توفيق السويدي في مذكراته:

(يوم أصبح الحجازي مديراً عاماً للشرطة فقد كان معروفاً وشائعاً على أفواه الناس أنه قد توصل إلى منصبه هذا بإسناد من البلاط، باعتباره من أصل حجازي، ومخلص للبيت الهاشمي) .

كان الحجازي على خلاف عميق وتنافر شديد مع (صالح جبر)، حيث لم يكونا على وفاق، وكانت آثار التباغض والكراهية ملموسة في أحاديث الطرفين أمام الآخرين، وتروي جريدة (صدى الأهالي) في عددها ١٢٤ في ١٩٥٠/٢/١٥ إنه بعد استقالة وزارة علي جودت في ١ شباط ١٩٥٠ صدر الأمر السامي بتكليف السيد توفيق السويدي بتشكيل الوزارة، فكان أن اختار صالح جبر وزيرا للداخلية، وفي أول جلسة لمجلس الوزراء الجديد طالب صالح جبر بفصل علي الحجازي من الشرطة، ولكن أمام رفض المجلس لهذا المقترح، اكتفى بنقل الحجازي متصرفاً للواء السليمانية.

وما أن سمع الحجازي بالقرار حتى ثارت ثائرته، واعتزم أمراً أن يقوم بحركة مسلحة تجبر حكومة السويدي على الاستقالة وعزل صالح جبر، وتنفيذاً لذلك فقد ذهب علي الحجازي ليلة ١١ / ١٢ شباط إلى معسكر قوة الشرطة السيارة في الصالحية وأصدر أوامره إلى بعض السرايا لاحتلال مناطق حيوية من العاصمة وغلق الجسور والقبض على الوزراء واعتقالهم، ثم اتصل برئيس الوزراء توفيق السويدي هاتفيا طالباً منه إقالة صالح جبر من منصب وزير الداخلية فورا .

سموالأمير / عبد الإله

وعلى إثر هذا التطور الخطير، قامت الحكومة بوضع الجيش بالإنذار، وأصدرت الأوامر بنزول القطعات العسكرية. وتدخل الوصي عبد الإله مستغلاً تأثيره الشخصي على (خالد الحجازي)، وأرسل إليه مرافقه الخاص العقيد عبيد عبد الله المضايفي، الذي أقنعه بضرورة الحضور معه لمقابلة الوصي في البلاط، وفعلاً مثل علي حجازي أمام الوصي وجرت مناقشة طويلة بينهما انتهت بإيداع (الحجازي) رهن الاعتقال .

وفي صباح يوم ١٢ شباط، بثت الإذاعة العراقية بياناً أعلنت فيه ما يلي:

((على أثر قرار مجلس الوزراء المتخذ مساء أمس بنقل مدير الشرطة العام السيد علي خالد من منصبه، الى منصب متصرف لواء السليمانية، شرع الموما إليه متأثراً بهذا القرار باستعمال القوة للإخلال بالأمن والنظام. ونظراً للتدابير التي اتخذتها الحكومة من جهة، ولأن عمله هذا لم يلق تأييد قواته، فقد أحبطت حركته فوراً وألقي القبض عليه تمهيداً لسوقه للمحاكم.))

يقول توفيق السويدي في مذكراته:

أنه في منتصف الليل وكان على وشك الدخول في فراشه، دق جرس الهاتف وكان المتكلم السيد علي الحجازي وقال له بصريح العبارة :

إذا لم تخرج صالح جبر من الوزارة غداً فإني سوف أقوم بانقلاب ! ... وأقفل التلفون.

وعلى الفور اتصل السويدي بصالح جبر وكان نائماً فأيقظوه،وكذلك إتصل بوزير الدفاع شاكر الوادي، وطلب منه اتخاذ اللازم للقبض على الحجازي.

وفي ١٤ شباط قررت وزارة الداخلية إحالة الحجازي إلى محكمة الجزاء المختصة وفق المادتين ٨٠ و ٨١ قانون العقوبات البغدادي بتهمة التمرد المسلح، وفي ٩ نيسان أصدرت المحكمة الكبرى حكمها بحبس الحجازي بالأشغال الشاقة المؤبدة. لكن محكمة تمييز العراق قررت في ٦ مايس ١٩٥٠ نقض القرار وإعادة المحاكمة.

وفي ١٩٥٠/٦/١٧ صدر الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، وأودع غرفة خاصة في سجن بغداد المركزي في الباب المعظم وكان محط زيارة الكثير من معارفه وأصدقائه من خصوم صالح جبر، إلى أن صدر قرار ملكي في ١٩٥٠/١٠/٣٠ بأعفائه عما تبقى من محكوميته، نتيجة تدخل الوصي عبدالآله.

واليوم، وبعد أكثر من خمسين عاما على هذا الحادث الدراماتيكي الغريب والمثير، وما أحيط به من غموض ولغط وشكوك وأقاويل، تبقى أسئلة محيرة دون جواب :

- هل كانت محاولة انقلابية فعلاً أم تمرد أم نزوة شخصية ؟

- هل كانت تعبيراً عن مشاعر السخط الشعبي ضد صالح جبر ؟

- هل إن الحجازي وقع ضحية التغرير والتحريض من أطراف استخدمته ورقة لتحقيق مآربها وغررت به، للأنتقام من صالح جبر، ولكن حين فشل. . وحين سقط . . تخلت عنه ؟

أسئلة كثيرة تدور . .وما زالت تدور، ولكن تبقى المحاولة الأنقلابية للسيد علي خالد الحجازي مدير الشرطة العام ليلة ١٢/١١ شباط ١٩٥٠ واحدة من الأحداث الدراماتيكية النادرة في تاريخ العراق الحديث تستحق التحليل، والتوثيق . . والتأمل.

تفاصيل أكثر عن تلك المحاولة :

ينتمي علي خالد الى اسرة معروفة وقد جاء الى العراق بصحبة الملك (فيصل الاول).١٩٢١وشغل عدة مراكز في مسلك الشرطة ، في اعقاب ثورة مايس ١٩٤١ جرى تعيينه متصرفا للواء السليمانية ، وبعد وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ ضد معاهدة (بور تسموث) التي عقدها رئيس الوزراء (صالح جبر) مع الانكليز واستقالة الاخير نتيجة للوثبة المذكورة وعندها تقرر نقل (الحجازي) الى منصب مدير الشرطة العام.

وفي ٥ شباط ١٩٥٠ تألفت وزارة توفيق السويدي خلفا لحكومة (علي جودت الايوبي) واصبح (صالح جبر) وزيرا للداخلية فيها.

وكان الاخير يضمر حباً غير مفقود (للحجازي) الذي كان يبادله المقت بدوره.

وبعد ظهر يوم السبت ١٠-٢-٥٠ سرت في بغداد اشاعة بان وزير الداخلية سيقدم اقتراحا الى اجتماع مجالس الوزراء المقرر عقده في الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم يقضي بنقل مدير الشرطة العام الى نفس منصبه السابق، اي متصرف لواء السليمانية.

هات الكأس!

وصادف ان كان الحجازي مدعو الى مأدبة عشاء تلك الليلة في دار الوجيه ناجي الخضيري وقد لاحظ المدعوون ، ومنهم رئيس الوزراء السابق (جميل المدفعي) انه كان متهيجاً وفي حالة غير طبيعية.

وفي اثناء احتسائه الشراب، سأله القوم عن موعد سفره الى مقر وظيفته الجديد فقال بانه فصل من العمل وصاح:

هل كانت محاولة انقلاب أم تمرد مسلح أم نزوة لحظتها؟

مدير الشرطة العام يقود انقلاباً ويطالب بعزل وزير الداخلية صالح جبر

انا لست حرامي حتى يفصلني صالح جبر!
وامعن في تناول المسكر حتى ثمل او كاد!،وفي حوالي الساعة العاشرة ترك دار (الخضيري) الى محل (عبد الله) في شارع (ابو نواس) أو مشرب حافظ القاضي حيث وجد الوزيرين السابقين (عمر نظمي) و(جميل عبد الوهاب) و(المحامي بهجت زينل) وبعد ان تفوه بعبارات لم يستحسنها هؤلاء بحق (صالح جبر) ، اكمل شربه وغادر المحل الى داره الساعة الحادية عشر.

الى معسكر

وبسرعة استبدل ملابسه المدنية بالعسكرية وحمل مسدسه وتوجه عند منتصف الليل تقريباً الى معسكر القوة السيارة في محلة (السعدون) وامر بارسال السيارات المسلحة كافة وسرية الاسناد الى معسكر السيارة في (الصالحية) للالتحاق به هناك.

وبعد وصول الحجازي الى الصالحية امر حرس المعسكر بعدم السماح لاي كان بدخوله وارسل سيارة مسلحة الى دائرة البريد المركزية في (الميدان) فاحتلها افراد الشرطة ووضعوا المدافع الرشاشة على سطحها، ومن ثم استدعى اليه المعاون (عبد الكريم ظاهر) وطلب منه الذهاب الى دار الاذاعة اللاسلكية في (الصالحية) واحتلالها الا ان ظاهر لم ينفذ الامر، فكان ذلك بداية فشل الحركة لان امراء الوحدات الاخرين الذين استدعاهم (الحجازي) للمعسكر قرروا وقف التمرد عن طريق اخفاء السيارات وتفريق القوات التي تجمعت هناك.

سأقلب بغداد!.علي خالد الحجازي ..... سأقلب بغداد رأساً على عقب.. اذا لم يستقيل صالح جبر؟.....

وفي هذه الاثناء اخذ (الحجازي) بالاتصال هاتفياً بعدد من الاشخاص، من مسؤولين وغيرهم، واخبرهم انه بالمعسكر ، فقد قال لعمر نظمي، (سوف لا اخرج من المعسكر ما لم يستقيل صالح جبر والا سأقلب بغداد رأسا على عقب!!) وهتف بوجه السويدي:

اذا لم يستقيل صالح جبر فسأحتل بغداد غداً)!!.

وبعد ان وصل الخبر الى مسامع الوصي (عبد الاله) جرت اتصالات مكثفة تقرر بموجبها ان يتخذ الجيش التدابير لاعتقال الحجازي واحباط حركته ومحافظة الامن والنظام ومسك رؤوس الجسور وثم تبليغ رئاسة اركان الجيش لاتخاذ ما يلزم.

تراجع وسجن.

وبعد ذلك، توجه عدد من اصدقاء التمرد، مثل المدفعي ووزير الدفاع (شاكر الوادي) و(نظمي) الى المعسكر واخذوا بأبداء النصح له، ولما وجدوه في حالة سكر وهياج وعناد، اخبروه بما قام به الجيش من خطوات وان حركته، والحالة هذه سائرة الى الفشل، وهنا حضر العقيد (عبيد المضايفي) مرافق الوصي ناقلا له امر الاخير بوجوب ترك المعسكر والتوجه الى (الرحاب) وهذا ما فعله بعد ان اصدر اوامره الى الشرطة بالعودة الى واجباتها الاعتيادية وهناك وضع قيد التوقيف بعد ان ابلغ باحالته على التقاعد.

وفي ٩ – ٤– ٥٠ قدم (الحجازي) الى المحكمة الكبرى لمنطقة بغداد فصدر الحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة، ثم استؤنف القرار في ١٧ – ٦ – ٥٠ فتقرر خفض المدة الى ثلاث سنوات ونصف، فلما جاءت وزارة (السعيد) الحادية عشرة في ١٦ ايلول ذلك العام.

استصدر ارادة ملكية، بايعاز من الوصي شخصياً ، باعفاء (الحجازي) عن بقية مدة محكوميته بعد ان امضى في التوقيف والسجن نحو تسعة شهور.

محلة الفضل في بغداد في رحاب التاريخ

جميل الزبيدي

تعتبرُ محلة الفضل من اقدم محلات بغداد في التاريخ وقد سكنتها عوائل عريقة متعاقبة وهي تعج الان بابناء تلك الاصول الطيبة من قبيلة العزة وطي والقراغول والعبيد وزبيد وبني هاشم الاجلاء والعنبكية وبني خالد وذراري الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام والاتباع المعصومة والزهاد وقيس وسائر العشائر العدنانية والقحطانية ،و هذه العوائل معروفة بالفضل والعفاف والسؤدد والتقوى والخير ونبغ فيهم عدد وافر من رجال السياسة والفقه والادب والتجارة كما حصل عدد كبير من ابنائهم على الشهادات العالية في الطب والهندسة والمحاماة وتسنموا مناصب ادارية وتربوية في الدولة كانوا من خلالها يقدمون للناس افضل الخدمات والمنافع ،وفي محلة الفضل معالم تاريخية واثارية وابرزها تكية السيد الشيخ كمر ،المشهورة ،داخل وخارج العراق بخدمة الدين ونشر العلم والفضيلة والاحسان بين الناس ،وهي تحت ادارة السادة الشيوخ من اولاد الشيخ كمر ذوي الكرامات والبركات الالهية ، وكلهم محبوبون من جميع الناس لما يقدمونه من خدمات وطعام وخيرات امتداداً لما كان عليه جدهم رسول الله (ص) من نهج قويم ومنهاج رباني رشيد واقتداءً بأجدادهم من ال بيت النبوة الطاهرة في الكرم والجود ونشر المعرفة واحياءً لهدي ما كان عليه الصحب الكرام والاتباع من حكمة ورشاد ،وحقا فهم خير خلف لخير سلف .. وكما افادنا المؤرخ المحقق الدكتور عماد عبد السلام في كتابه الاصول التاريخية لمحلات بغداد بان هذه المحلة تقع بين محلات خان لاوند والبارودية وحمام المالح وهي منسوبة الى جامع الفضل الواقع هناك ،وهو جامع قديم العهد ، ويرجح والراي للاستاذ عماد عبد السلام انشئ عند قبر الفضل بن سهل بن بشر الاسفرائيني الشافعي الواعظ البغدادي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ وسمي هذا الجامع في وقفية مؤرخة في سنة ١٠٩٢ هـ ١٦٨١م بجامع الامام الفضل وقد جدده والي بغداد سليمان باشا الكبير سنة ١٢١٠هـ ١٧٩٥م وهي العمارة التي ظلت باقية حتى العهد الاخير ، وكانت المحلة في العصر العباسي تعد جزءاً من محلة باب ابرز ومقبرتها ثم تتابعت عدة وقفيات بعد ذلك في هذا الشأن يطول بنا ذكرها ،وورد اسم المحلة في سجلات المحكمة الشرعية المؤرخات في ١٢١٥هـ ١٨٠٠م و١٢٢٩هـ ١٨١٤م باسم محلة (ابو الفضل) ومن معالم المحلة (بحسب تحقيقات المؤرخ الدكتور عماد عبد السلام) شارع ترددت الاشارة اليه في الوثائق المرتقية الى اوائل القرن الرابع عشر الهجري وهو الممتد حالياً من مدرسة الفضل الابتدائية الى شارع الخلفاء وهناك اشارات الى سعة هذه المحلة بما فيها حمام المالح، وجزءٌ من محلة الحيدرخانة واجزاء من محلات اخرى ..ومنذ سنوات بعيدة كتبت مسودات عديدة عن تاريخ هذه المحلة وبعد اكمالها اتفقت مع احد الناشرين لطبعها لقاء ثمن زهيد قدره ١٠٠ مائة الف دينار ومرت سنوات عديدة والمخطوط باق بذمته معتذراً بسوء حالته المادية امل من الله انً يفرج عنه ازمته المالية لكي ياخذ المخطوط مكانه من الطبع وقد مدح كثير من الشعراء محلة الفضل بما فيها من ناس طيبين ومعالم مشهورة بارزة مثل تكية الشيخ كمر ومنهم ابن بغداد الشاعر الموهوب فؤاد طه محمد الهاشمي البغدادي في قصيدة رائعة تحت عنوان (الفضل واهلها) وقد وضعناها في مقدمة كتابنا (تاريخ محلة الفضل) فقال :

الى الانجاب في (الفضل)
لاهليها هم اهلي
تحيات من القلب
كنفح الورد والفل
هم الدنيا واهلوها
فمن اشباههم؟ ..قل لي
حماة الدار امجاد
اباه الظلم والغل
واهل السور اعلام
ورمز الخير والبذل
وهم (اقمارنا) زانت
ربوع النجد والسهل
تكاياهم بلا ند
وهل للبدر من مثل
اذا ما اقبل الضيف
راى الاكرام كالسيل
راى التاريخ والدنيا
وقد سارا على مهل
سيوفنا تلهب الهيجا
موازينا لدى العدل
(جميل) طبت في المسعى
وفي اسلوبك السهل
سجاياك هي الغر
لدى مملكة النحل
وبغداد هي الدنيا
وعشق الناس (للفضل)

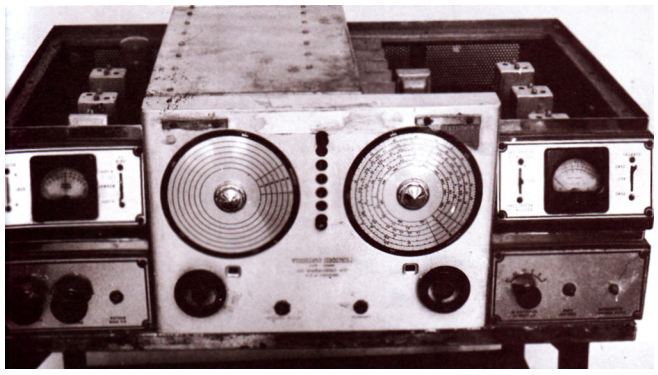

بدأت اول محطة اذاعية ذات هوية عراقية في عام 1935 او عام 1936، وكانت تديرها الحكومة. وتقدم المصادر العراقية ومصادر اليونسكو تواريخ متضاربة عن ذلك الحدث. وكانت هذه المحطة متوسطة الموجة وذات قوة واطئة، حظيت بتسهيلات تقنية متوسطة، وقدمت جدول محدد من البرامج، واديرت تحت رعاية (ادارة البريد والبرق)، الا انها كانت تدار فعليا بواسطة لجنة حكومية ضمت ممثلا عن وزارة التربية.
وتوفرت ببعض الاموال لسد نفقات هذه المحطة من الضريبة المفروضة على بيع مستقبلات الاذاعة (الراديو)، مع ذلك كان الحصول على الاموال الكافية قد شكل معضلات خطيرة واجهت المحطة.

ذكريات عن تأسيس اذاعة وتلفزيون العراق

الحادثة الاكثر غرابة في البرنامج الاذاعي العراقي حدثت في عهد الملك غازي (١٩٣٣ – ١٩٣٩)، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده الملك فيصل الاول (١٩٢١ – ١٩٣٣). وكان غازي، الذي تأثر على نحو ظاهري بين المقاييس الغربية والعربية، مهتما بالمشاريع التقنية. وعاش حياة متهورة على المستوى الشخصي. اما سياسيا فكان معاديا للبريطانيين ومناصرا للالمان على الاقل على مستوى الاذاعة. وبعد تأسيس محطة الاذاعة الحكومية، بدأ غازي بتأسيس محطته الخاصة التي كانت تبث من القصر الملكي وكان غازي المذيح الوحيد فيها. وكانت هذه المحطة تبث وفقا لرغبة صاحبها ومعروفة بكونها احدى الاذاعات الموالية للنازيين بموضوعاتها الاخبارية التي كان الالمان يقومون ببعضها. وتوقفت هذه المحطة الملكية بعد وفاة الملك غازي في نيسان من عام ١٩٣٩.

في عام ١٩٣٩، كانت الاذاعة الحكومية تبث برامج لحوالي خمس ساعات يوميا ، خمسة عشر دقيقة منها باللغة الكردية، وشكل ذلك البداية لخدمة الاقلية الكردية، التي تعيش اكثريتها في القسم الشمالي في البلاد. وفي عام ١٩٤٥، توسعت خدمات الاذاعة الحكومية بمساعدة المستشارين والتقنيين البريطانيين. وعلى الرغم من استمرار بث البرامج العربية حوالي خمس ساعات يوميا، زاد بث البرامج الكردية من خمسة عشرة دقيقة الى ساعة.

بين نهاية الحرب العالمية الثانية وثورة عام ١٩٥٨، حدث القليل من التطورات النسبية في الاذاعة العراقية. ولم تكن الاسرة المالكة والزعماء مدركين على نحو واضح للتغييرات السياسية التي حدثت على مستوى العالم العربي. فكانوا جاهلين وغير مبالين بالاضطراب الواسع في العراق، وفشلوا في زيادة البرامج الاذاعية او بناء المرسلات التي يمكن ان توفر بث البرامج الاذاعية الوطنية لجميع المواطنين. وعندما ادرك بعض الزعماء الافتقار الى خدمات بث اذاعية فعلية كان الوقت متأخرا جدا لتصحيح الوضع، فلم يتم الاستيراد السريع لاستديوهات البث والمرسلات وابراج الارسال وتنصيبها.

فمنذ قيامها بثورة ٢٣ تموز عام ١٩٥٢، وانجزت مصر بنشاط ما اهمله العراق. ففي الكراسة التي نشرها جمال عبد الناصر عام ١٩٥٥ (تحرير مصر: فلسفة الثورة) اشار الى ان مصر يجب ان تعمل ضد الاستعمار وحدد مناطق معينة يجب ان تؤثر فيها مصر، اطلق على هذه المناطق اسم (دوائر): الدائرة العربية الاكثر اهمية.. وهي التي ترتبط بها على نحو وثيق، والدائرة الثانية هي القارة الافريقية تقع فيها مصر حيث وصف ناصر الصراع بين البيض والسود، والدائرة الثالثة التي تحدد بالقارات والمحيطات... هي ارض اخواننا في العقيدة، الدائرة الاسلامية.

وكان العراق ضمن الحلقتين الاولى والثالثة، وكانت الظروف هناك وفي بلدان عربية مختارة ملائمة لاستغلالها من خلال واحد او اكثر من برامج ناصر الاذاعية. وخلال السنوات الثلاثة التي سبقت ثورة ١٩٥٨، كانت هناك حرب اذاعية بين مصر والعراق. ووفقا لعوامل عديدة مثل قوة الارسال والملاك المتفوق والتصميم الشفاف، كان المصريون متفوقين. وكان عبد الناصر معاديا للملكية ورأى بان العراق، في ظل حكم نوري السعيد، موال للبريطانيين. فنوري السعيد مساند لحلف بغداد الذي انضم العراق اليه، وهو الحلف الذي اعتقد عبدالناصر انه محاولة اخرى للدول غير العربية للتأثير في سياسة الشرق الاوسط. شن معلق الاذاعة المصرية احمد سعيد هجوما من خلال "اذاعة صوت العرب". والمقتطفات الاتية من برامج احمد سعيد الكاملة لهذا الخطاب العربي الشعبي للمعلق بل انها تقدم امثلة لهجوم الاذاعة العصرية.

"انت يا اخي تعرف الرجل تعرف كيف زور الانتخابات وكيف زيف ارادة الشعب. وتعرف كيف فرض النواب على البرلمان – النواب الممثلين له ولاسياده المستعمرين، الذين لا يمثلون الشعب او يعملون من اجل العراقيين. وانت يا اخي تعرف نور السعيد، تعرف هذا الرجل – انه لا يستطيع الا ان يخدم المستعمرين. وهو يحاول ايضا ان يخدم كل من ينهب واولئك الذين يعادون اخواننا في العراق. انت يا اخي تعرف هذا العدو نوري السعيد.. ان قلوب الشعب في العراق مفعمة بمشاعر انتقامية ضد حكم نوري السعيد والاستعمار البريطاني.. ان ابادة جواسيس الاستعمار هو الخطوة الاولى نحو انهاء الاستعمار نفسه. فمصر تحررت بهذه الطريقة، وبالطريقة نفسها سيتحرر العراق.

"اخي في العراق، انت ابتعدت فعليا عن قذارة وبذاءة نوري السعيد – حافظ على ابتعادك عن مؤامراته وحكمه.. فليست هناك قوة على وجه الارض ستكون قادرة في المستقبل، عندما ستحرر نفسك من نوري السعيد وجواسيسه، ان تلزمك باي قرار اتخذه نوري السعيد".

وقبل اسبوع من ثورة ١٩٥٨ شكر احمد سعيد الله، خلال برنامجه بمناسبة الذكرى الخامسة للثورة في صوت العرب، يفجرون الثورة – المفرحة التي اندلعت في كل بقعة من ارض العرب، التي ادى (صوت العرب) دورا بارزا فيها اعترف به العدو. وكانت هناك على الاقل حزمة سرية مصرية تسللت الى العراق، اطلق عليها اسم (اذاعة العراق الحر)، وهي المحطة التي اقتربت من (اذاعة القاهرة) و(صوت العرب) في الدعوة للثورة. وقد انتبه نوري السعيد على نحو كاف للبرامج المصرية لاتخاذ اجراءات مضادة، لكن ذلك جاء متاخرا جدا. وناشد رئيس الوزراء الحكومة الامريكية للمساعدة في بناء مرسلات: طلب نوري السعيد مرسلات ذات موجة طويلة ومتوسطة "في غضون ايام، او اسابيع قليلة في ابعد تقدير" لانه اشار ان امكانيات الارسال العراقية لا تجاري تلك التي تستخدمها مصر" وربما لم تكن الدرجة التي ساهمت بها البرامج المصرية في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ معروفة للثورة العراقية. وهناك شك قليل بان المواطنين العراقيين استمعوا الى هذه البرامج واستقبلوا ما كان يقوله احمد سعيد. وبعد الثورة، تسلم مدير (صوت العرب)

الملك فيصل الثاني في افتتاح تلفزيون العراق

ورئيس المذيعين احمد سعيد رسالة من العراق احتوت على تذكار تثمينا لدعم الاذاعة المصرية الذي قدمته للثورة – كان في مغلف الرسالة قطعة من اصبح رئيس الوزراء السابق نوري السعيد.

الاذاعة العراقية بعد الثورة:

ادركت حكومة عبد الكريم قاسم بعد الثورة اهمية البرامج المصرية وحقيقة ان العراق لم يكن مجهزا بمعدات الارسال اشارة داخلية فاعلة للمواطنين او الوصول الى الدول المجاورة باشارة اذاعية. وقد اصدر عبد الكريم قاسم تعليماته للحصول على امكانيات ارسال واسعة من الاتحاد السوفيتي، وهو البلد الذي اصبح متحالفا معه، ولا سيما في المسائل العسكرية. وفي عام ١٩٦١، وعلى نحو مرافق اللاحتفال بالعام الثالث لثورة ٩٥٨، خصص قاسم ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار لشراء معدات الارسال. هذه المعدات اشرت دخول العراق الى نادي العالم العربي للمرسلات ذات القوة العالية واصبح العراق مساويا لمصرفي قوة الارسال.

وفي ظل حكم قاسم، لم يكن العراق ومصر يتمتعان بعلاقات وثيقة ولمدة كانت الحرب الكلامية الاذاعية شديدة، كما كانت في المدة التي سبقت ثورة ١٩٥٨ مباشرة ان الغرور المبكر الذي تلا سقوط الملكية كان قصير المدى لان العراقيين واجهوا مشكلات اقتصادية وصراعات سياسية داخلية، حتى بين انصار قاسم. ويعلق نواف عدوان على استخدام قاسم للاعلام الجماهيري بما ياتي:

بعد ثورة ١٩٥٨، ظهر الكثير من الاصدارات وازدادت النشاطات الثقافية، واتسعت البرامج الاذاعية الى خمسة عشر ساعة يوميا واصبحت البرامج ثورية ومعادية للامبريالية في طبيعتها. وحتما فان هذه الحرية ادت الى الفوضى والصراع بين الصحف والاحزاب السياسية. فاغلق قاسم غالبة صحف المعارضة وظلت فقد الصحف التي تدعمه. وحول الاذاعة والتلفزيون الى اداوات لحكومته وشخصه واختار المذيعين الذين يناصرونه وسجن اولئك الذين لا تفقون مع سياسته. واصبحت الاذاعة والتلفزيون مكرسان لقاسم وكانت خطبه والاخبار الاخرى تشكل غالبية ساعات الارسال. وتم تسجيل وبث الاغاني التي تمجده فقط في الاذاعة. وخلال السنوات الخمسة التي قضاها قاسم في الحكم استخدم الاعلام على نحو واسع لاغراضه الخاصة.

اتبع الزعماء الذين جاءوا بعد قاسم، باسلوب لا يختلف عن بقية الزعماء العرب، سياسة تطوير استغلال الاذاعة محليا واقليميا ودوليا، فعند الثورة ، اصبح الاعلام المرئيس والمسموع يدار مباشرة من (وزارة الاعلام).

وتم التوسع في بناء مرسلات عالية القوة وليس التوسع في استوديوهات الانتاج الاذاعي وتجهيزاتها . وكانت الاستوديوهات الاذاعية، الواقعة في بغداد في مبنى يضم بناية التلفزيون، كافية لانتاج المادة الاذاعية التي كانت تبث لاهداف متنوعة. بعض المعدات، مثل السيطرة السمعية وصلت في عقد الخمسينيات، لكن بعضه الاخر، مثل المايكروفونات ومسجلات الاشرطة السمعية الامريكية Ampex كانت جديدة.

مجلة العاملون في النفط 1972

ذكرياتي عن وثبة 1948

ناجي جواد الساعاتي

كان صباح يوم الثلاثاء المصادف ٢٧ من كانون الثاني ١٩٤٨ بهيجا غير ان بغداد بدت عابسة مكفهرة على الرغم من اشراقة شمسها كما بدا (شارع الرشيد) موحشا على الرغم من تقاطر الناس على ارصفته وارضه وتزاحمهم في ساحاته.

وكان محلي الصغير في منطقة (حافظ القاضي) من شارع الرشيد مستقرا مقابل ساحة (الوثبة)، الساحة الخالدة، التي تشرفت يومها بهذا الوسام الوطني النضالي، وفي ذلك الصباح كان الشعب الغاضب، على اختلاف طبقاته وقومياته ودياناته واتجاهاته السياسية متجمهرا وداعيا بصوت هادر الى اسقاط (معاهدة بورتسموث) الجائرة هائفا بحياة (فلسطين) حرة عربية.

واقبل الموكب المهيب من بعيد، وفي طليعته الوطنيون الاحرار من اهل الفكر وارباب السياسة وقادة الاحزاب الوطنية، والعلماء والروحانيون ، والكسبة والعمال الوطلاب يحدو بهم الخطباء والشعراء.

فهذا شاعر الشعب (محمد صالح بحر العلوم) يرتقي اكتاف ابناء الشعب، وهو يلقي بحماسه المعهود قصائده النارية الملتهبة:

واغنية المجد ما وقعت

على غير اورودة قطع

ثم يمضي مع الجماهير. مخاطبا خونة الوطن وعملاء الاستعمار:

ويمينا لو هادنتكم يميني

لحظة لاقتطعتها بشمالي

واستمرت المواكب الجماهيرية طيلة ذلك اليوم الحزين، تطوف شوارع بغداد، كرخها ورصافتها، حاملة نعوش شهداء الوثبة الاحرار، (شمران) وجعفر الجواهري و(قبس الالوسي) وغيرهم..

وفي الايام التالية اقيمت الفواتح ومجالس العزاء في (الصحن الكاظمي) و(الحضرة الكيلانية) و(جامع الامام الاعظم) و(جامع الخلاني).. كما اقامت الطوائف المسيحية في الاديرة والكنائس (القداسات)، فتوالت على بغداد وفود المعزين من المدن العراقية للمشاركة في مؤاساة عوائل الشهداء وهم يرددون قوله تعالى "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله اموانا بل احياء عند ربهم يرزقون". وعندما زرت مع صديقي (عبد العزيز جعفر ابي التمن) – طيب الله ثراه – الحضرة الكيلانية لقراءة سورة الفاتحة على اراوح الشهداء الابرار، شاهدنا شاعر العرب الكبير (محمد مهدي الجواهري) يقف شامخا وقد لفه الحزن العميق لاستشهاد ابناء الوطن ومنهم شقيقه (جعفر)، وهو يلقي رائعته الخالدة التي رددتها الجماهير في كل مكان، وتغنى بها الوطنيون الاحرار والثوار:

اتعلم ام انت لا تعلم

بان جراح الضحايا فم

فم ليس كالمدعي قوله

وليس كآخر يسترحم

اتعلم ان جراح الشهيد

تظل عن الثأر تستفهم

اخي (جعفرا) يا رواء الربيع

الى عفن بارد يسلم

تعلمت كيف تموت الرجال

وكيف يقام لهم مأتم

وكيف تجر اليك الجموع

كما انحر للحرم المحرم

اسالت تراك دموع الشباب

وفور منك الضريح الدم

وفي عودتنا الى (باب المعظم) وجدنا المتجمهرين في الساحة الكبرى المقابلة لقاعة (الملك فيصل) – انذاك – يحملون الشاعر المبدع (السيد محمد الحبوبي) على الاعناق وهو ينشدهم قصائده الوطنية.. يتلوه الشاعر الشاب الناشيء (بدر شاكر السياب) رحمه الله...

وعندما عبرنا (جسر الشهداء لحضور مجالس الفاتحة المقام في محلات (الكرخ) (الشواكة)، (باب السيف) (الصالحية)، (رأس الجسر)، (الشيخ بشار)، (الدوريين)، (الارضرومللي)، (الرحمانية)، (الشيخ معروف)، (الجعيفر) ، (الست نفيسة)، (السوق الجديد) وغيرها..

كان الشعراء الوطنيون الاحرار يؤججون نيران الغضب بالقاء قصائدهم اللاهبة، اذكر منهم الشاعر الجريء الشاب (عدنان فرهاد) والشاعر الشعبي (عبد المجيد الملا) والشاعر العصامي (جاسم الجبوري) والشاعر المناضل (عدنان الراوي) طيب الله ثراهم وجعل الجنة مثواهم.. واذكر بان الشاعر (بحر العلوم) كان يتجول بين تلك المحافل، وقد استشارته الجماهير بالقاء قصيدته المرتجلة التي كان يرددها بمظاهرات تشييع الشهداء ، ولم تستطيع الجماهير عند القائها في حينه تسجيل ابياتها الا ما يزيد قليلا على (٤٠ بيتا)..

ومطلعها:

يا وثبة الشعب اخرقي

باللعن (عهد) الاخرق

فعهد (بورتسموت) قيد

لاح لك الدرب فسيري

حرة وانطلقي

الصف من التفرق

سلاح الظفر المحقق

ويا ضحايا عهد (بورتسموث)

للخلد اسبقي

وقد كان للاحزاب الوطنية الثلاثة التي كانت قائمة رسميا انذاك ، وبينها المشترك، اضافة الى اجماع الرأي لدى (٢٠) نائبا وطنيا من نواب المجلس النيابي على الاحتجاج ثم الاستقالة، التي اعقبتها استقالة رئيس المجلس واستقالة بعض الوزراء وما تمخض عن هذه التطورات المتعاقبة السريعة من نتائج ايجابية لمصلحة الوطن والشعب.

كل هذه المؤثرات وغيرها، كانت لها القوة البالغة الفعالة ايضا على اجبار عاقدي المعاهدة للتراجع.. ثم سقوطهم مع المعاهدة.

ولايفوتني هنا ان اسجل باعتزازي ما كان لوثبة كانون الشعبية تأثير بالغ في انفتاح وعيي سياسيا وبلورة موقفي وطنيا.

كما كانت تشكل – بكل مبرراتها ونتائجها – مرحلة انعطاف فكري بالنسبة لكثير من ابناء جيلي – شباب الاربعينيات، اذ كنت وكنا لا ندرك من هذه المناورات السياسية والمؤامرات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية والمعاهدات الا ظواهرها الخلابة ودعاياتها الكاذبة ودعوات ولائمها المستطابة. فلم اكن ادرك سعة المطامع الاجنبية في منابع (العراق) النفطية، وكنوزه المعدنية وثرواته الزراعية، وطرق مواصلاته البرية، وملاحته النهرية والجوية، إلا حينما انتهت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ / ١٩١٨) ، ثم عشنا الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ / ١٩٤٥، عندها ظهرت نوايا واهداف الدول الغربية والشرقية على حقيقتها في استلاب غنائم الشرق والغرب، خاصة البلاد العربية الغنية بخيراتها الوفيرة، بشرية ونطقية وزراعية، حيث بدأت المناورات الدولية تظهر على شكل مؤتمرات (مالطة)، (برلين)، (موسكو)، (باريس) ، (سان فرانسيسكو)، (نيويورك).

وقد كان الشرق اهم هذه الميادين التي تعرضت للهب تلك المنافسة السياسية الشرهة بين (الروس) واتباعهم من جهة والمعسكر (الانجلو امريكي) وحلفائه من جهة ثانية ومن الطبيعي ان يكون عراقنا الحبيب، جزءا مهما من هذا الشرق وهل يخفي على احد اعتبارهم (العراق) حلقة من السلسلة الذهبية، الذي تحرص بريطانيا على ان تجعله (زنارا) تشد به وسطها النحيف.

وكم كنت اصغي الى الحوار السياسي والفكري، الذي يتبادله المثقفون في الندوات الادبية، حول الهموم الوطنية والقيود الاقتصادية التي يشكو منه التجار والحرفيون في الاسواق.. فادركت مدى المطامح الاجنبية وغرابة المؤامرات الاستعمارية التي اجهضت (الثورة العربية الكبرى) عام ١٩١٥، بقيادة المغفور له الملك (حسين) شريف مكة، الذي ذهب ضحية رفضه الاعتراف بوعد (بلفور) فخسر عرشه وبقي منفيا في جزيرة (قبرص) طيلة حياته، ولم يكتف الانكليز بتأمرهم على حريته وحياته، بل تأمروا على ارضه وشعبه وقسموا ارضه العربية الى دويلات ومشايخ وامارات وشردوا الشعب الفلسطيني من ارضه العربية وسمحوا لليهود باقامة دولة صهيونية.

ومنذ صباي – في الثلاثينيات – كنت اشاهد المظاهرات الجماهيرية تطوف شوارع بغداد علها تحمل الحكام، وتثير نخوة الوطنيين الاحرار لصيانة حقوق الشعب العربي الفلسطيني . وبعد سنين عجاف، استيقظ ضمير (البلاط) فاستجاب لتلك المظاهرات الشعبية من اجل تهدئة الغضب الجماهيري فسمح بعقد اجتماع ضم بعض رؤساء الوزارات السابقين والوزراء، وبعض اركان الحكم اضافة الى مجموعة من الشخصيات الوطنية التي تتمتع باحترام الاواسط الشعبية وتقديرها، لاضفاء الصفة الشرعية على الاجتماع، وخلع الصفة الوطنية عليه..

فتمخضت المحاورات الدبلوماسية والمناورات السياسية فولدت – فأرا – سمي (معاهدة بورتسموث)، لتكون بديلا عن المعاهدة السابقة المعقودة عام ١٩٣٠ بين العراق وبريطانيا، في ٣٠ حزيران.

فكان ما كان .. من تضحيات وطنية جسيمة ومظاهرات جماهيرية عارمة في وثبة كانون الخالدة، التي كان شهداؤها الابرار ومناضلوها الاحرار عاملين مؤثرين في اخضاع السلطة الغاشمة على الانصياع لصوت الشعب وارادته بالغاء (معاهدة بورتسموث) الجائرة.

من كتاب (بغداد) للراحل ناجي جواد الساعاتي

خليلو ذلك القزم الموهوب

يوم كنت منطلقا من دربونة (ابي التمن) فاجتاز الازقة الضيقة والطرقات المتعرجة، وجلها غير مؤقتة، مارا بـ (عقد النصارى) ومنعطفا نحو (سوق الغزل) الصاخب بهواة الحيوانات وعشاق الطيور، لانفذ من خلال دروبه الحلزونية الى (علاوي) الحنطة والتمن، ثم الى (سوق الشورجة) ومنه الى سوق (العطارين) الذي تتصعد من خاناته ومحلاته رائحة التوابل الهندية، وعطر (ماء الورد) و(القداح)، حيث يستقر عند نهايته (جامع مرجان) الاثري مطلا على (شارع الرشيد). عندها اقف متأملا قبل ان اعبر الى جهته الثانية كي ادخل الى سوق (البزازين) المتعدد الفروع، حيث تنتشر خانات ودكاكين تجار وباعة الاقمشة و(العبي) و(الفوط)، وصانعي (الحزم) و(الحيص)، ثم لأصل الى سوق (الخفافين) فاشاهد العمال يجلسون امام (التزكاة) ليعالجوا صنع (اليمنيات) والعرق يتصفد من جباههم، فما ان انتهي من سوق الخفافين حتى اصل الى (سوق الكمرك) حيث كان محل شقيقي (ابراهيم) ، وهو عبارة عن (ورشة) لتصليح (الكوامفونات) ذات الصناديق الخشبية ببوقاتها المعدنية المخروطية الشكل المشرئبة الى امام ذات (الماركة) العالية (صوت سيده His Master's Voice) ويومها ما كانت تخلو منها المقاهي الشعبية في نواحي بغداد وضواحيها.

وكنت اجد المحل، عامرا بالزبائن وهواة (المقام) العراقي وقرائه، فكنت – مع صغر سني – استمع ولا استمتع!.. "ورب مستمع والقلب في صمم"، بغناء (رشيد القندرجي) الحزين الباكي، وكان – رحمه الله – في اخريات ايامه يرتدي (الدشداشة) تتسربل عفويا فوق جسمه المترهل وتستقر (السدارة) – الفيصلية – على راسه الكبير.

ومن رواد المحل مطرب العراق الاول الاستاذ (محمد القبانجي)، وقد كنت احبه واكن له الاحترام فهو صديق حميم لأخوتي، وكانت ، وما زالت، صورته مثبته في صالون اخي (ابراهيم)، تسمو بفنه الاصيل وتزهو بانايه (الجلبية) وهو يرتدي (البزبون البتة) و (العباءة – الجوخ – الكلبدون)، وعلى رأسه تستقر (الفينة) الحمراء فتزيده اناقة وهيبة وكنت اسمع من مرتادي المحل بروحه الوطنية فكثيرا ما يردد:

بلادي وان جارت علي عزيزة
واهلي وان شحوا علي كرام

واذكر من بين من كان يتردد على الدكان، لينضم الى (الشلة) الفنية البغدادية، قارئ المقام (يوسف عمر) وكان يومها شابا فارع الطول انيقا بزيه البغدادي (الزبون والجراوية).

وكان ذا هيبة صارم الوجه صلب العود قليل الكلام والابتسام غير هياب في المواقف الصعبةولا يخشى العقاب فهو بلغة اهل بغداد "زلمه سبع!..".

وكنت اشاهد في (المحل) شابا طويل القامة هادئ الطبع رضي الخلق يرتدي الدشداشة والسترة وتعلو رأسه (السدارة) ، يسير بهدوء قاطعا (سوق الهرج) بخطى ثابتة متأنية حتى يصل الدكان فيسلم بأدب ويجلس ليصغي لقراء (المقام) حتى صار يتقنه فراح يغنيه من (اذاعة بغداد) انه المغني (حسن خيوكه) رحمه الله.

ولن انسى (خليلو) الشخصية البغدادية الظريفة الموهوبة، ممن لا يفارقه دكان اخي، لولعه الشديد بـ (الاسطوانات القديمة).. وكثيرا ما كان يشوقني لاستمع واياه لما يختاره من اغاني المغنيات والمغنيين القدامى، فيحمل (الاسطوانات) برفق بيده الصغيرة ذات الانامل القصيرة ويديرها على (الكرامافون – الحاكي) ليصغي بكل حواسه الى الاغنية.

وكان (خليلو) معجبا باداء (الشيخ سلامة حجازي) من خلال اغنيته الشهيرة:

ان كنت في الجيش ادعى صاحب العلم
فانني في غرامي صاحب الالم
يامن تملكتمو قلبي فكان لكم
عبدا وكنت له من اطوع الخدم

ولكثرة ما رددها على مسمعي حفظتها عن ظهر قلب، ولو وهبت عذوبة الصوت وشجاعة القلب، اذا لشغفت اذان جيراني واهلي بالغناء.

كما كان مفتونا بالفنان العبقري (السيد درويش) وبموسيقاه ذات الايقاع الشعبي، وباغنيه واناشيده ذات المغزى الوطني:

بلادي بلادي بلادي
لك حبي وفؤادي

وكان يحفظ عن ظهر قلب نصا وغناء اغنية (سيد درويش) الشهيرة ويرددها كثيرا:

ضيعت مستقبل حياتي في هواك
وازداد عليه اللوم وكثر البغدده
حتى العواذل قصدهم دايما جفاك
وانا ضعيف ما اقدرشي احمل كل ده
ان كان جفاك يرضي علاك وانا في حماك
عفو الحبيب ما يكونشي احسن من كده

اما عن سيدة الطرب (ام كلثوم) فكان يراها القدوة لا لصوتها الماسي الصافي فحسب بل لروعة ادائها الغنائي فكم سمعته يشير على الحاضرين بادب ولطف بان يصغوا للسيدة كيف تقدم بكل انسجام وشفافية وصلتها الغنائية، فمشاعرها العاطفية وهي تنساب بدقة ورقة فنية متناهية مع كل مقطع غنائي، كأنسياب في شفاه الكعاب.. فهي تحاكينا محاكاة روحية ، ذات حساسية مرهفة فاذا ما تجلت وانتم تصغون لها، احسستم بصوتها يتكيف حسب المعنى في القصيدة كلمة كلمة، ويدير علينا الشيخ الامام (عبد الله الشبراوي) والتي لحنها (الشيخ ابو العلا محمد):

وحقك انت المنى والطلب
وانت المراد وانت الارب
ولي فيك يا هاجري صبوة
تحير في وصفها، كل الاصب

الا تجدونها ، عاشقة تذوب رقة.. فاذا انتقلنا معها الا الابيات التالية:

ابيت اسامر نجم السما
اذا لاح في الدجى او غرب
واعرض عن عاذلي في هوا
ك اذا تم يامنيتي او عتب
امولاي بالله رفقا بمن
اليك بذل الغرام انتسب
ويا هاجري بعد ذاك الرضا
بحقك قل لي لهذا سبب

ادركنا كيف تؤديها بحزن دفين، حزن العاشق الذي شفه الوجد واضناه الهجر.. فاذا استرسلت وهي تتحكم بنبرات صوتها الشجي وكأنها انسان في متاهات الحياة يستنجد بالحبيب ويرجو رضاه:

متى ياجميل المحيا ارى
رضاك ويذهب هذا الغضب

وهنا يكمن السر الخفي بل السحر الغنائي للسيدة، من حيث يدري المستمع ولا يدري، ما هو مبعث تبوئها على عرش الغناء العربي، وهي بين ثباتها على عهد الحب وعجبها من صدود المحب كانت تصور مشاعر العاشق وهي تترنم:

فاني محب كما قد عهد
ولكن حبك شيء عجب
ومثلك ما ينبغي ان يصد
ويهجر صبا له، قد احب

اما الشاعر الذي صور بكلماته المضيئة محاسن المحبوب وسجاياه، فقد كان اقتدارها العالي في الاداء افاضة واضافة باهرتين، لابرازها بهذه الروعة والسمو شعرا، حيث تكامل ذلك كله بلسان (ام كلثوم) نغما واداروتطريبا:

اشاهد فيك
الجمال البد
يع فياخذني عند ذاك الطرب
ويجعبني معك حسن القوام

ولين الكلام وفرط الادب

ولذلك حينما قدمت السيدة ام كلثوم الى بغداد في الثلاثينات التقى بها (خليلو) مرارا وتكرارا، فادهشته كما ادهشت العراقيين المرهفين، دقة تقديم وصلاتها الغنائية وطبقات حنجرتها الصوتية، وبالمثل فقد اعجبت السيدة بمواهب (خليلو) الفطرية، وحدة ذكائه، وسرعة بديهته، وبراعته، في تقليد ومحاكاة المغنين والممثلين فشوقته بان يصحبها الى (القاهرة) ، لتضمه الى احدى الفرق التمثيلية لاظهار مواهبه الفنية في الافلام السينمائية والمسارح.. وعقب (خليلو) والآهة الحرى سبقت قوله:

لو اناطوا بي دورا مناسبا كدور الشيطان او الجني، لقمت به ومثلته باتقان ولا سعدتهم بالضحك واسعفوني بالمال، ولكنني ضيعت فرصتي الذهبية، وكم ندمت لضياعها كثيرا، وندبت حظي العاثر طويلا.. اليس ضياع الفرصة غصة؟!.

و(خليلو) ناقد فني دقيق الملاحظة قوي الحجة لذلك استقدمته (دار الاذاعة العراقية) في بداية (الخمسينيات).. فكان دوره طريقا وعرضه الغنائي ممتعا. ونقده لقراء المقام العراقي مسببا وموضوعيا.

ومن طريف فذلكاته الذكية، انه جعل لكل واحد من محبيه (رقما) خاصا يناديه به، مستعيضا عن اسمه (خليلو) الذي اصبح الكل ينادونه به، وهم بين ساخر مستهزئ ، او مداعب مازح.

واذكر جيدا ان رقم شقيقي هو (١٢)، فاذا صادفه في الطريق يحث السير، وهو خائف ، ناداه بالرقم (١٢) ، فيقف (خليلو) مطمئنا ويتجه صوب صاحب الرقم، والبسمة العريضة تستطيل على شفاهه الغليظة، ليحييه "صباح الخير (اسطة ابراهيم)!!..".

غير ان روحه التي انطوت على الحرمان والعذاب، والتي تحز فيها ذكريات ماضي اليم، وحاضر على البؤس مقيم كانت تتصارع في اعماقها مواهبه الفتية المخفوقة، وتثور في خلجاتها طموحاته المستقبلية المكبوتة وسنوات عمره التي تزحف به نحو الشيخوخة حتى امسى الضعف الجسدي وضعف البصر معا...

وفي ساعة من ساعات التجلي والخشوع يناجي ربه:

يا الهي.. خلقتني مشوها قزما فرضيت بحكمك ومنحتني نظرا ضعيفا فرضخت لقدرك وحرمتني العطف الابوي فأمتثلت لامرك.. كل هذه جعلتها بين ضلوعي صابرا مؤمنا بانها قدري.. ولكنها اجتمعت عندي مع الفقر، فاعني عليه ياربي..

وللاسف الشديد لم اعلم ولا صديقه الحاج ابراهيم كان يعلم.. متى شيع (خليلو) الى مقره الاخير.. الفقير.. حتى جثمانه يفتقر الى التشييع والمشيعين.

جريدة البلاد عام 1965

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون